الفصل الثالث

في جبال وسهول وأودية سورية المجوّفة

هيكل جبل الشيخ

حرمون أو جبل الشيخ: (المقتطف ٣٢: ٢٥٦) اسم عبراني بمعنى (قمة عالية) و(لا يدنى منه) أو (مقدس) وسماه العبران[1] سيئون أيضاً. وقيل إن حرم بالعبرانية بمعنى حرّم وأهلك بالموت. وفسّره القديس هيرونيموس بحرم الحِداد وسماه الصيدونيون (سريون) أي المتلألىء أو الذائب. والعموريون (صنير) وذُكر الاسمان في التوراة وفي الكتابات المسمارية ويرد ذكره بصيغة الجمع حرمونيم إما للتعظيم وإما لأن له ثلاث قمم.

والأموريون سموه (سنير) أو (شنير) ومعناه (سن النور) واسم سنير يطلق حتى اليوم على سلسلة جبال شمالي دمشق بين بعلبك وحمص. ويقال إن سنير هو فرع من جبل قاسيون فوق الصالحية ويُطلق على جبل القلمون أو الحلو وهو متصل بجبال لبنان قال البحتري[2]:

وتعمّدت أن تظل ركابي بين لبنان طلّعاً والسنير
مشرفات على دمشق وقد أعرض منها بياض تلك القصور

وعرف العرب هذا الاسم فقال شاعرهم عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي[3] الحلبي من قصيدة له في ديوانه المخطوط الموجود في مكتبتي:

---

(١) العبرانيون.

(٢) ديوانه ٢ / ٩٤٦.

(٣) هو عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي. شاعر، أخذ الآداب عن أبي العلاء المعري. ولد سنة ٤٢٣ هـ/ ١٠٣١ م وتوفي مسموماً بقلعة عزاز سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣ م. فوات الوفيات ١/ ٢٣٣، النجوم الزاهرة٥/ ٩٦، اللباب لابن الأثير ١: ٣٨١ (المحقّق).

اسم[1] ركابي في بلاد غريبة — من العيس لم يسرح بهن بعير
فقد جهلت حتى أراد خبيرها — بوادي القطين أن يلوح سنير
وكم طلبت ماء الأُحص بآبد — وذلك ظلم للرجال كبير

وقال أبو العلاء المعري من قصيدة[2]:

اذا ما أخفت المرء جُن مخافة — فأيقن أن الأرض كفة حابل
يرى نفسه في ظل سيفك واقفاً — وبينكما بعد المدى المتطاول
يظن سنيراً من تفاوت لحظه — ولبنان سار في الفضا والعنابل

وقال شيخ الربوة في نخبة الدهر صفحة ٢٠١: «وحدود الأرض المقدسة طولاً من أذيال جبل السنير وهو جبل الثلج شمالاً عند مرج عيون وإلى آخر جبل الخليل».

والظاهر أن جميع تسمياته متفقة على الإشارة إلى علوه وبياض هامه بالثلج واحترامه. وإن كان التقليد العبراني يدل على أن تسميته بالحرم واللعنة دلالة على قتل قايين لهابيل وهكذا فسروا كلمة الليطاني (النهر) بالآرامية بمعنى اللعنة أو الحرمان أو الموت وربما أخذ اليونان تسمية هنا اسم ليطي نهر الجحيم عندهم. وسلسلة جبل الشيخ تمتد نحو عشرين ميلاً من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي كان مقدساً عند القدماء كما في التوراة ومن تسميته جبل بعل حرمون.

وللجبل ثلاث قمم بينها سهول. وتدعى القمة الجنوبية بقصر عنتر وفيه هيكل خرب. وتتصل القمم بعضها ببعض بواسطة نياع منبسط.

ويسمّى المرتفع من الجبل (أي جبل الدَّحي) وهو إلى الشمال من وادي يزرعيل بحرمون الصغير.

سمّاه العرب جبل الثلج وجبل الشيخ بعد ذلك. ويقال إن الشيخ الفاضل الدرزي

(١) كلمة اسم في مطلع البيت وردت في الأعلاق الخطيرة لابن شداد ١/ ٥٨ (أشيم) وبها يستقيم البيت (المحقّق).

(٢) ديوان ابو العلاء المعري، لزوم ما لايلزم ٢/ ٢٥٥ (المحقّق).

تعبّد فيه في صومعة تنسب إليه كما ذكر س. فوندر العالم الانكليزي. وقمته جرداء مكسوة بالثلوج ولاسيما في الشتاء وفيه الدرب السوري المعروف.

وفي قمة جبل الشيخ (**قصر شبيب**) أشار إليه ماسي جروم وهو هيكل قديم لبعل حرمون وهو من أعلى قمم لبنان أو لبنان الشرقي. سكنه في أيام القضاة الآراميون وكان حداً شمالياً لما فتحه الاسرائيليون من أرض كنعان. ويعلو عن سطح البحر ٩٢٠٠ قدم وقمته كالعتبة المبسوطة تكسوها الثلوج حتى في الصيف وعلى سلخه كروم وضياع والجهة الغربية لا تخلو من الأشجار. والواقف على قمة حرمون يستشرف لبنان وجماله ودمشق وغوطتها وساحل صور والكرمل حتى مناظر الجليل وبحيراته. وفي الصيف لا يمكن أن يخلو من الغيم.

قال حسّان بن ثابت الأنصاري في جبل حرمون (الشيخ)[3]:

من دون بصرى ودونها — جبل الثلج عليه السحاب كالقدد

ويسمى أيضاً أمانة وبعل حرمون وسيئون وسريون وسنير وستنير. علو أعلى قممه ٢٦٧٠ متراً (نحو ٩٤٠٠ قدم) وطوله ثلاثون كيلومتراً أو ثلاثة وثمانون ميلاً[4] أو سبع ساعات. وهو إلى الجنوب الغربي من دمشق على بُعد ٣٠ ميلاً.

في نحو سنة ١٩٨ م كانت آسية الرومانية في أيامه مقسومة إلى اثني عشر عملاً أو أقليماً فكان الثامن والتاسع منها سورية وعاصمتها انطاكية. وكانت الندوة الرومانية قد تركت مدة بعض الامارات قائمة بنفسها ينوب الحاكم فيها مناب الشعب الروماني ويخدم الحكومة بجباية الأموال الأميرية ولكنها ضمّت هذه الامارات الصغيرة على التعاقب إلى أقليم سورية. فضمت سورية الكومجانية سنة ٧٢ م وكلشيس (إما قنسرين أو عنجر) في أيام دوميتانوس. والأبلية (وقصبتها سوق بردى) سنة ٤٨ م. وحمص في أيام فلافيانوس

(٣) ديوان حسان بن ثابت، ص. ٧٤ (المحقّق).

(٤) هناك خطأ حسابي في تحديد طول جبل الشيخ، إذ إن الثلاثين كيلومتراً تساوي حوالى ١٩ ميلًا وليس كما ورد (المحقّق).

ودمشق وجمهورية تدمر سنة ١٠٦ م عندما أخذوا العربية الحجرية. وكان ولاتها أشبه بنواب يرجعون في شؤونهم المهمة إلى وُلاة سورية فكان ذلك من سنة ٦-٤١ م ومن ٤٤- ٧٠ حين دمرها طيطوس وصارت اقليما يحكمه معتمد روماني ويضبط فيلق من الجند ثم جعلت جالة رومانية مسماة أليا وقصبتها قيصرية عوض أورشليم. ولما ملك سبتموس ساويروس (...)[١] قسّم سورية إلى قسمين جاعلاً (الأول) إلى الشمال وفيه سورية الكومجانية وسورية المجوفة أي السهول التي على ضفتي العاصي إلى أنطاكية والبحر وما بين اللكام ولبنان. و(الثاني) في الجنوب والشرق وفيه سورية الفينيقية والشطوط البحرية وشرقي لبنان إلى وسط البرية ومنه بعلبك وحمص ودمشق وتدمر. ونصّب هذا العاهل ملكاً على القسم الأول ماريوس مكسيموس من أحسن قواد جيشه.

كان هذا الجبل في الدور المكدوني مركزاً لعبادة إله الآلهة بعل الشمس مصدر الحياة فأقيمت على سفحه عدة معابد صغيرة وعلى قمته بني سور من حجارة ضخمة وفي وسطه مذبح. وفي السهل نحت معبد صغير في الحجارة. وفي القرن الرابع كان لا يزال معبداً تحج[٢] إليه سكان لبنان وبانياس. أما في القرن العاشر فغدا الجبل مقراً لطائفة الدروز ولزعيمهم الشيخ الدرزي، وبعد حادثة ١٨٦٠ أخذ الجيش الفرنسي من حاصبيا بعض كتب الدروز المهمة.

وسلسلة الجبال المحدقة بسورية المجوّفة هي قسمان: (الجبل الشرقي) و(الجبل الغربي).

فالجبل الشرقي: هو سلسلة مختلفة التضاريس والارتفاعات غريبة الشكل والتعاريج بديعة الوضع والإشراف تتشعَّب شعباً كثيرة تمتد إلى جهات دمشق وما وراء الاردن وحوران وبادية تدمر. وهذه السلسلة توازي لبنان وتمتد من مدخل حماة الذي وضعه السهل الجنوبي الشرقي من حمص شمالاً إلى جبل الشيخ (حرمون) جنوباً. ومنحدره الغربي يتهافت

(١) بياض في الأصل.
(٢) يحج.

بسرعة خلافاً للشرقي الذي ينحدر تدريجاً نحو سهل دمشق. والجبل الشرقي عموماً قليل الخصب والسكان. جبل العرب يطل على بعلول في البقاع وهو آخر الجبل الغربي الداخل من الشرقي. (راجع القلقشندي) (٥: ٨٥).

والجبل الغربي: سلسلة كثيرة الشبه بالأولى وإن خالفتها بأشياء كثيرة لأنهما شقيقتان. وقد تختلف الأختان وإن اتفقتا بتدرجهما من سلالة واحدة فهذه الجبال المتسلسلة هي مشارف البحر الرومي تمتد من (...)[١].

والمنحدر الغربي أبطأ تهافتاً من الشرقي. وأوفر خصباً وتخرقه أودية عميقة وهو كثير الضياع وسكاناً[٢] بخلاف المنحدر الشرقي فإنه قاحل قفر كما سبق.

(١) بياض في الأصل.
(٢) والسكان.

في البقاعين

{في بقاع العزيز[1] وتسميته وجغرافيته
والبقاع البعلبكي[2] وتسميته وجغرافيته}

خريطة تبين بعض المواقع الأثرية في بعض بلاد البقاع في سورية المجوّفة

(١) البقاع العزيزي: أنظر صبح الأعشى للقلقشندي ٤/ ١١٠، ١٤/ ٥٣ (المحقق).

(٢) البقاع البعلبكي: أنظر: صبح الأعشى للقلقشندي ٤/ ١١٠، ٤/ ٢٠١. وللتوسع أنظر ٤/ ٣٧٣ و١٢/ ٤٠٩ (المحقق).

عرفت في الفصل الماضي أسماء (سورية المجوّفة) العديدة التي أطلقت عليها إلى أوائل القرن الثالث عشر للميلاد فاشتهرت باسم (بلاد بعلبك والبقاعين)[1]. والمراد بالبقاعين كما مرّ ايضاً (بقاع العزيز) نسبة إلى الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان[2] ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي الشهير الذي اعتنى بتجفيف أرضه وزراعتها. و(البقاع البعلبكي) نسبة إلى مدينة بعلبك لأنه يتبعها. أما (سهل بعلبك) فهو ما يجاورها. وكانت عبادة الإله (عزيز) أي الشمس شائعة في هذا السهل فقيل (بقاع العزيز) ولعله أولى من الرأي الأول. إن البقاع العزيزي هو المعروف الآن بالبقاع الغربي المتصل بجبل لبنان الغربي في سفوحه وأسناده ولا نعلم بالتحقيق حدوده الطبيعية ولكننا نرجح أن نهر الليطاني في جنوبيه هو حد البقاعين وكان مقر ولاية هذا البقاع (كرك نوح) كما ذكر ذلك كثير من متأخري المؤرخين مثل المحبي في خلاصة الأثر(١: ١٧٧) وغيره ثم قب الياس بعد ذلك.

والبقاع البعلبكي هو المجاور لمدينة **بعلبك** في جهة لبنان الشرقي من سورية المجوّفة. وفي القرن الحادي عشر لم يكن له مقر ولاية كما صرّح بذلك المحبي في كتابه (خلاصة الأثر) وربما كانت له بعد عاصمته كلشيس أو **عين الجر** (عنجر) في القديم احدى القرى المجاورة له لأننا نرى أن موقعها يساعدها على ذلك.

وكانت أرض البقاعين تتداخل أحياناً في لبنان لأن **عيتنيت** كانت في القرن السابع عشر للميلاد تابعة **لشوف الحرادين**. وبعد ذلك كان **البقاع الغربي** جميعه أو معظمه يسمّى **أقليم البيّاض** وقاعدته مدينة **زحلة** ويسمَّى أيضاً **الشوف البيّاضي** لبياض تربته وصخوره في أكثر نواحيه ولا سيما زحلة.

وكانت تتداخل أحياناً في لبنان أو يتداخل فيها كما ترى الآن في القرى فوق زحلة مثل

(١) في القرن الثالث عشر للميلاد ذكر السهل باسم ولاية بعلبك والبقاعين أي البعلبكي والعزيزي، راجع تاريخ بيروت صفحة ٩٢ (المؤلف).

(٢) ولد الملك العزيز هذا في القاهرة سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م وتوفي سنة ٥٩٥ هـ/ ١١٩٨ م فيها ودفن في القرافة. والقرافة لغة بمعنى المقبرة (المؤلف). ومن المعروف أن القرافة لا تزال قائمة إلى الآن وتقع على حافة جبل المقطم لجهة القاهرة، وتشرف عليها القلعة المعروفة، ويقطن بين قبورها مئات ألوف السكان الفقراء (المحقق).

الرمثانية وزحلة والمريجات وبمهريه[1] فإنها طبيعياً من البقاع وادارياً من لبنان وكذلك **وادي العرائش وقعفرّين وحزّرته.**

وكذلك تداخلت ببلاد بشارة (**أو جبل عاملة**) مثل **مشغرة** وضواحيها فإنها كانت قديماً من جبل عاملة وهي اليوم من البقاع الغربي. حتى إن **الكرك** نسبت أحياناً إلى جبل عامل ولعلها سميت هكذا لأن سكانها شيعة.

ذلك انفرد اسمه هكذا سهل (بعلبك والبقاع) حسب التقسيم الاداري الحالي. وكان يتصل بوادي التيم فيتداخلان أحياناً بعضهما ببعض إلى عهدنا الحاضر، كما يتصل بنواحي **حمص** فيتداخلان أيضاً وكذلك كان تداخله **ببلاد بشارة** (أو جبل عامل)، فإن مشغرة وضواحيها كانت أولاً من جبل عامل فصارت الآن من البقاع، وتداخله في جبل القلمون حتى إن قارة كانت من أعمال سورية المجوّفة وكذلك **الزبداني** وما إليها من **وادي يحفوفة والزبداني وبردى.**

وكانت مملكة (**حماة**) قبل الميلاد بثمانية قرون لم تمتد في أراضي نهر العاصي الوسطى فقط، بل كانت تمتد أحياناً إلى البقاع بحسب ما كانت دمشق خصيمتها تتركها تتنفس الصعداء وتقرب من مملكتها.

وأطلق اسم (كليسورية) أي سورية المجوّفة أو وادي سورية على هذه القلعة في عهد مملكة اليونان وكان تخمها - حدها القديم - من عدوتي البحر الميت إلى تخوم انطاكية. وكان اليونان منذ عهد هيرودوتس يطلقون اسم سورية ليس فقط على فينيقية وضواحي

(١) بمهريه من لبنان ومن البقاع إلى شرقي عين زحلتا على بعد ربع ساعة عنها واقعة على تل عال يشرف أعاليه على البقاع حيث يسمى المحل (زلعة نوح) أو (الزلقة). وبمهريه في السهل تبعد عن بمهريه الأولى ثلاث ساعات إلى الغرب في منقلب الجبل وسفحه في أرض البقاع. قتل أهل بمهريه بدوياً فثقلت الحكومة عليهم فأحرقوا القرية بالتبابين (أو المتابن) وغادروها قاعاً صفصفاً وباعوا أملاكهم للخواجة (إده) إلاَّ قليلاً. وفي هذه البلدة (بمهريه) بنو أبي ملهب (أو ملهم) من كيروز بشري أتوا رأساً إلى بمهريه وهم الآن نحو ثمانمائة نسمة أو نحو ١٨٠ بيتاً في بمهريه بالجبل. ومن أبي ملهب بمهريه كنعان والأفندي شبلي كنعان في عزبة الزيتون (المؤلف).

دمشق، بل يطلقونه على جميع سهول البقاع فيسمونها بالوادي العظيم وعلى بلاد فلسطين (المشرق ١١ : ٨٥).

وموقعه الجغرافي بين ٣٣ درجة و٢٠ دقيقة و٥٤ درجة و٤٠ دقيقة من العرض. وهو في سورية المتوسطة التي تبتدئ من مدخل حماة شمالاً وتنتهي في مدينة **صور** جنوباً. ويتصل شرقاً بجبل لبنان الشرقي (انتيلبنان) المنخفض السلسلة القليل العمران والسكان والخصب في غربيه لكثرة انحداره وأقصى علوّه في طرفه الجنوبي جبل الشيخ الذي يرتفع عن سطح البحر ٢٨٠٠ متر. وغرباً بلبنان الغربي الذي هو أكثر ارتفاعاً من الشرقي وأوفر خصباً وعمراناً وسكاناً ولاسيما في غربيه، فهو يخالف شقيقه بعض المخالفة وأقصى علوّه في طرفه الشمالي جبل المنيطرة فوق اليمونة الذي يرتفع ٩٥٠٠ قدم وفي طرفه الجنوبي جبل الكنيسة أو بوارج فوق المريجات وعلوه نحو ٦٦٥٠ قدماً وجبل الباروك فوق **عميق** الذي يماثله علوّاً.

وشكله مستطيل متعرج تحدق به سلسلتا اللبنانيْن كالسور من جميع جهاته ويشرف عليه كثير من القرى القائمة في سفوحهما ومشارفهما وهناك قلعة بعلبك الضخمة كالجبّار تحدّث عن عظمة الانسان وقوة فكره التي سوّغت له قطع مثل تلك الحجارة الضخمة ونقلها إلى علوّ شاهق وبناءها[1] كالجبال المنيعة مما يعجز عنه بنّاؤو عهدنا مع تفننهم في الصناعات وكثرة اختراعاتهم وسهولة النقل عندهم.

وللبقاع مداخل تمثل مضايق عسيرة المرور. وكان مدخله العظيم الخطير درب المغيتة من قمة الجبل **من المديرج** إلى حارة مراد فوق **المريجات** وكان فيه خفراء يدفع المارة لهم خفارة ليؤمنوهم في طريقهم فأبطل هذه الخفارة الأمير بشير الشهابي الكبير لما امتدت صولته إلى أطراف البلاد وذلك سنة ١٨١٢ م فبطلت الخفارة من جميع أطراف البلاد[2]

(١) وردت هكذا في الأصل، والصواب وبنائها باعتبارها معطوفة على مجرور وهي مضاف إليه (المحقق).

(٢) كانت الخفارة عادة قديمة مرسومة على خان الحسين (مقابل بحمدون) وخان المديرج في الطرق الجبلية وأذن أن تمر القوافل بدون رسوم (المؤلف).

وأذن للقوافل أن تسير بأمان دون تغريم، «فسهّل سبل المواصلات. ومداخل البقاع إلى الجنوب أولاً مدخل إلى **جزين ونيحا** في نفسها **تومات نيحا** قرب **مشغرة** وكانوا يستدلون بهما إلى القرن الثامن عشر على موقع **صيداء**. وذلك بدرجة فرحات، وعلى التومات برج ومغارة وهما على جانبي الداخل إلى صيداء **والشوف** **وجزين**. والمدخل الثاني في وادي السنديان قرب مشغرة وفيها حديد وهو ينفذ إلى جهة جزين. والثالث من **جسر بُرغُز** على الليطاني إلى بلاد بشارة (جبل عامل) في وادٍ عميق[1].

وكان في القديم ممتداً إلى وادي يحفوفة والزبداني وما وراءهما لجهة دمشق لأن الابيلية (**سوق وادي بردى**) كانت حاضرة البقاع في صدر القرن الاول المسيحي. وهذا ما يدل على أن اسم (سورية المجوّفة) كان يراد به قديماً كل ما اتصل بسهل البقاعين وبعلبك وإن انفصل عنه بمضايق صغيرة من الأغوار التي تشاكل وضعه كأطراف بلاد بشارة **ووادي التيم** وأودية يحفوفة والزبداني وبردى ووادي العاصي شمالاً إلى ما وراء **حمص**.

وقضاء البقاع أكبر قسم من سهل البقاع وهو ناحيتان بقاع العزيز أو الغربي. والبقاع الشرقي وفيه ٦٧ قرية و٤١٥٨ بيتا منها ٢٤٥٨ للمسلمين وسكانه ١١٠٨٠ نسمة منهم ٩٠١٢ مسلمون والباقون نصارى ويشقه طريق **بيروت ودمشق** للعربات ماراً في شتورة إلى براالياس فوادي القرن. واليوم تمر به السكة الحديدية من المريجات إلى دمشق مارّة بريّاق ووادي يحفوفة والزبداني وبردى. ومساحة أرضه نحو أربع مائة فدان والفدان ١٦٠٠ أي ألف وست مائة ذراع مربعة. وفيه سباخ كثير أي أرض غمقة لا تصلح للزراعة.

ومن حاصلاته الحنطة والشعير والباقلى (الباقية) والذرة وقليل من الحرير وأعشاره نحو ٧٥٠٠ ليرة عثمانية وقصبته المعلقة أو معلقة زحلة[2].

ومن سورية ينحدر وادي الحرير بأرض مجدل عنجر سُلب فيها الحرير والجوخ في

---

(١) وفي عريض الرأس قبالة عيتنيت (قصر) فيه آثار مهمة في بطن وادٍ على جانبيه وهو مدخل البقاع (المؤلف).

(٢) تقويم قضاء البقاع مأخوذ عن دائرة المعارف العربية سنة ١٨٨١ م، وهو اليوم يختلف عن القديم قرى ومساحة (المؤلف).

القديم من التجار فسميت بذلك وقيل لخفارته فيها وهناك عبّارة الجوخ (جسر صغير). ثم سهل **جديدة يبوس** ثم (وادي القرن) أي وادي كورون. وفي رأس وادي القرن على بعد ساعة على طريق الشام من راشيا بحيرة في دير العشاير يشغل بذار ألفي مدّ. ووادي يحفوفة قرب **رياق** ومنه إلى وادي الزبداني فوادي بردى وهو الآن ممر السكة الحديدية بين رياق ودمشق.

في بعلبك وتسميتها وجغرافيتها

إن في تسمية **بعلبك** آراء كثيرة نظراً لترامیها في القِدم، فقيل اسمها سرياني لأن أقدم سكانها الآراميون وهو (بَعْل بَقْعُوتُو) أي بعل البقاع. والبقاع جمع بقعة، هي بمعنى واحد في اللغات الشرقية يراد بها الأرض والمحلّ. فقال الفينيقيون فيه (بعلبكّا) أو (بَعْلبَاح). وأشار إلى ذلك التلمود والكتابات المسمارية فجاء في كتاب المشنة، أي التقاليد اليهودية في القرن الثاني للميلاد (بعل باكي). ربما كانت (بعل) (باخوس)، فقيل (بعل باكو) نسبة لآله الخمر الذي عُبد فيها منذ القدم. على هذا يكون البقاع تحريف (باخوس) أيضاً. أو أنها فينيقية من (بعل) اله وبك (بيت) أي بيت البعلية، فاسمها بَعْلبك أو بُعلْبَكْ بلغة عامة السوريين الآن تحريف ذلك الاسم، وبه اشتهرت قديماً، فذكرها أمرؤ القيس الكندي في ذهابه إلى بزنطية أو القسطنطينية بقوله من قصيدة:

ولـقـد أنكرتني بعلبكّ وأهلها ولابن جريج في قرى حمص أنكرا

وأشار إليها عمرو بن كلثوم التغلبي بقوله من قصيدة أخرى:

وكـأس قـد شـربـت ببعلبكّ وأخـرى فـي دمـشـق وقاسرينا

ولما حلّ اليونانيون هذه الربوع ترجموا اسمها بكلمة (هليوبوليس) أي **مدينة الشمس،** لأن كلمة بعل تدل على الشمس الذي شاعت عبادته في هذه البقعة. وعلى كل حال فاسمها يترجم بجميع اللغات عن عبادة الشمس فيها، وهو من أدلّ التسميات على الحقيقة التاريخية المشهورة بها.

وتغلب الاسم السامي القديم السرياني أو الفينيقي أي بعلبك على كل التسميات الأخرى، وتمسك به الوطنيون فبقي إلى يومنا بذلك اللفظ القديم المحرّف أي بعلبك. وقال رينان الفرنسوي: إن اسم بعلبك تحريف (بعلبقاع)، إن مدينة بعلبك من بناء الفينيقيين.

وروى ابن عساكر في تاريخ الشام (٣: ٩٥) في ترجمة القديس الياس: وقال الحسن

البصري: إن الله بعث الياس إلى بعلبك وكانوا قوماً يعبدون الأصنام ألخ... قلت (المؤلف) إن كلمة الياس أراها تحريف (أليوس) أي الشمس فظنوها اسم النبي الياس. وروى مسبيرو في تاريخ شعوب الشرق: أن طَبُوخا أو طُبُوكا هي بعلبكّ.

وذكر شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد بن أبي بكر البناء الشامي المقدسي المعروف بالبشاري من أهل القرن الرابع للهجرة في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) طبع ليدن (هولندة) سنة ١٨٧٧م صفحة ٥٤: « ولدمشق **داريًّا، بانياس، صيدا، بيروت، عرقة، طرابلس، الزبداني، وناحية البقاع** مدينتها بعلبك، ولها كذلك عرجموش». وقال في صفحة ١٥٤: «ولدمشق ست رساتيق: **الغوطة، حوران، البثنية، الجولان، البقاع، الحولة**» وفي صفحة ١٦٠: «بعلبك مدينة قديمة فيها مزارع وعجائب معدن الأعناب وسائر مدنها طيّبة رحاب». وفي صفحة ١٨١: «ومن بعلبك الملابن». وذكر: «أنها وتدمر من بناء سليمان من عجائب الأبنية».

وقال شيخ الربوة في كتابه نخبة الدهر صفحة ١٩٨ و١٩٩: « ومن أعمال دمشق **بوارش وبقاع العزيز وبقاع بعلبك**... واقليم غرتا[1] **واللبوة**، ولها من حول ذلك المدن ذوات الاعمال مدينة بعلبك... وبأذيال لبنان مدينة كامد، وهو عمل من أعمال بعلبك **وكسروان** من أعمال بعلبك» إلخ...

ومما يتداخل من بعلبك في لبنان (**الهرمل**) و(**شمسطار**) فإنهما بحسب موقعهما الطبيعي من سورية هما، وبحسب التقسيم الإداري هما من لبنان لأنهما أعطيا للمشايخ الحماديِّين المتاولة الذين كانوا في لبنان ولا يزالون فيها إلى يومنا.

يحد قضاء بعلبك شرقاً جبل القلمون ولاسيما قضاء النبك. وشمالاً الهرمل **وجوسية** وغرباً لبنان الغربي وجنوباً قضاء البقاع من **بيت شاما إلى سرعين**. فآخر بعلبك في الشمال **القاع** وأراضيها. ومن ذلك قال خليل قدور النوري (لولا الاسم نوري لحط ميرتها من القاع لل...[2].

(١) ربما يريد فيها قونا وهو اسم لراس بعلبك فتكون مصحفة ومحرفة في النسخ (المؤلف).

(٢) كلمة غير واضحة في الأصل. والتكملة من صفحة ١٠٨ (للبقاع). (المحقق).

وذكر القلقشندي في صبح الأعشى (٤: ١٠٨) ما مآله:

في المعاملة الشمالية: سميت بذلك لأنها عن شمال دمشق. قال في مسالك الأبصار: وهي ساحلية وجبلية. قال في «التعريف»: وحدّها من القبلة حدّ ولاية دمشق الشمالي وبعض الغربي. وحدّها من الشرق قرية **(جوسية)** التي بين القرية المعروفة **(بالقصب)** من عمل حمص وبين القرية المعروفة **(بالفيجة)** من عمل (بعلبك). وحدّها من الشمال **(مرج الأسل)** المستقلّ عن (قائم الهرمل) حيث يمر العاصي **بطرابلس**. وكل ما تشامل عن جبل لبنان إلى البحر. وحدّها من المغرب ما هو على سمت البحر منحدراً عن صور إلى حد ولاية برّ دمشق القبلي والغربي. وتشمل هذه الصفقة على خمسة أعمال: (الاول) عمل بعلبك. و(الثاني) عمل البقاع البعلبكي. و(الثالث) عمل البقاع العزيزي. و(الرابع) عمل بيروت. و(الخامس) عمل صيدا (أ.هـ).

أودية البقاع المشهورة

وادي الحرير: يبتدئ من مصنع المجدل (أي مجدل عنجر) إلى مصنع الباشا قبل جديدة يبوس وكان يسمى قبلاً وادي عين الجر.

وصخور وادي الحرير ملساء ولعلها سميت بذلك لتبسطها ولينها كالحرير أو كما يروون لأنها سرقت فيها قوافل كثيرة محملة حريراً وجوخاً وهناك عبّارة باسم (عبّارة الجوخ). وقيل لأنه كان في أحد الخانات أو فنادق الوادي خفر لعدم تهريب الحرير بدون أخذ رسم عليه. وفي أخبار الأعيان لطنوس الشدياق صفحة ٦٥٤ ما نصّه: وسنة ٨٩٥ م وقع اختلاف بين الأمير نعمان والأمير محبوب والأمير هلال ابني الأمير اسحق (الارسلانيين) فذهبا (من الغرب) إلى دمشق يشكيانه فأرسل أناساً يكمنون لهما في وادي عين الجر المعروف الآن بوادي الحرير فلما أقبلا قطعوهما بالسيوف إرباً إرباً وأرسل أناساً إلى اولادهما الصغار فقتلوهم جميعاً وأعطى محلهم في النيجينية[1] للأمير أياس بن غانم بن عيسى بن مسعود الارسلاني[2].

(١) في أخبار الأعيان ٢/ ٤٩٩ الفيجنية.

(٢) أنظر الواقعة في أخبار الأعيان ٢ / ٤٩٩، طبعة الجامعة اللبنانية ١٩٧٠ (المحقّق).

وادي القرن: من جديدة يبوس وينتهي عند عقبة الطين قبل ميسلون[1].

وادي القرن: صخورها مشقّقة ناشزة ذات تضاريس كالقرون فلعلها سميت بلآن من ذلك أو أنها (وادي كورون) أي زحل وفي سنة ١٦٥٠ حمل بشير باشا حاكم دمشق على الأمير ملحم المعني وتنازلا في وادي القرن فانكسر الباشا وعاد إلى دمشق خاسراً.

وادي بكا: بين ينطا ومدوخة إلى جنوبي طريق الشام وفيها حدثت موقعة بين الوزير ابراهيم باشا المصري والدروز. ولعلها تحريف (بقاع) أو (باكوس).

١. في وادي يحفوفة وبردى وتسميتهما وجغرافيتهما

إن وادي **يحفوفة** يبتدئ من قرية **ماسّة** قرب **علي النهري** حيث يدخل القطار الحديدي بين ريّاق ودمشق في وادٍ عميق كأن خططته يد المهندس الطبيعي ليكون طريقاً حديدياً فينساب فيه نهر يحفوفة قرب **ديرغابا** ويمر قرب قرية يحفوفة سائراً إلى الغرب وصاباً قرب علي النهري آخر قطراته لسقيا الأرض. ثم هنالك نبع بردى الذي مخرجه من قرب الزبداني فيتخلل وادي بردى جارياً إلى الجنوب الشرقي إلى مدينة دمشق حيث يسقي الغوطة غربي دمشق وفي شرقيها وينضم إليه نبع الفيجة البديع المياه والذي جرّت مياهه إلى دمشق بأقنية خاصة للشرب فردّ عنها هجمات الأوبئة ولاسيما الكوليرة أو الهيضة أو الهواء الأصفر.

وهذان الواديان مشهوران بالأشجار الغبياء التي تظلل ضفة النهرين وريعها وافر من الفواكه والمزروعات على اختلاف أنواعها فهي غنية بأثمارها وأشجارها. وقد قام في سفوح هذين الواديين وروابيهما قرى ومزارع كانت بعضها مدناً في الزمن القديم ولا تزال آثارها ناطقة بمجدها.

الزبداني: **يبوس وكفيريبوس أو جديدة يبوس** تبعدان ساعتين ونصف عن قرية الزبداني. وسكان الزبداني ١٩٢١م عشرة آلاف نسمة وسكان **مضايا** خمسة آلاف **وبلودان**

(١) ميسلون الآن والقدماء يكتبونها (ميسنون) فوق عقبة الطين وقبل صحراء الشام. وميسنون أو معيسنون من الغرب الأعلى قرب كيفون في لبنان أمام سوق الغرب (المؤلف).

أربعة آلاف **وسرغايا** أربعة الآف وسوق وادي بردى نحو ثلاثة آلاف **والبطرونة** ألفان **وكفير الزيت** ألف **وبقّين** مائتان **وعين حور والحوش** مائة.

وريع الزبداني مشهور بخصبه، ففي سنة ١٩٢١ م عُشر القمح فيها عشرون ألف مدّ والفول ألف ومائتان والشعير ألف والذرة ١٤٠٠ وعشر التفاح الصيفي ثلاثون ألف غرش والشتوي من منيني وهاماني وخلاطي ودرشاوي عشرة آلاف والسفرجل ١٥ ألفاً والبطيخ والعنب والتين ثلاثة عشر ألفاً والبصل وباقي الخضر خمسة آلاف.

يقول الفلاحون إن حدود لبنان القديم كانت تتصل بمقلب الماء في رأس الجبل الحلو شرقي الزبداني وبلودان وسمي (الحلو) لكثرة عنبه وتينه ومياهه في رأسه تجري من جهة الشرق إلى جلبون وصيدنايا، ومن الغرب إلى قضاء الزبداني. فكان لبنان قديماً يمتد إلى حدود دير قانون الخارجة عنه فيشمل كفير الزيت وسوق وادي بردى والبطرونة ومضايا وبقّين وهريرة وبلودان والزبداني وعين حور وسرغايا وجنتا ويحفوفة.

وصارت الزبداني قائمية مقام سنة ١٣١٦ رومية ونحو ١٣١٧ هـ/ ١٨٩٩م وموقعها بين بيروت ودمشق وبعلبك تمر فيها السكة الحديدية الآن.

ومن منسوجاتها العباآت[1] (العبي) والمقارم (الشراشف) ومحصولاتها الحنطة والشعير والذرة والفول والحمص. ومن فواكهها المشهورة في القديم (التفاح) والبطيخ الأصفر وهو نوع مخصوص منه يسمّى (قاوون) والعنب والمشمش والسفرجل وهو مشهور بنكهته. والدراقن والخوخ والجوز والتوت. وفيها معمل للحرير ويخرج من داراتها الحرير فيها ثلاثة آلاف أقة سنوياً وربما زاد على هذه القيمة.

وفي أواخر سنة ١٩٠٩م مدّ خط تلغراف من الزبداني إلى دمشق.وفرع من الزبداني إلى بلودان مقر قائمية المقام الصيفي ودشّـن في شهر كانون الأول سنة ١٩٠٩ م.

وفي الزبداني عيون ماء معدنية (حديدية) قليلة المجرى يجب فتحها والاستشفاء بها لأنها مفيدة في بعض الأمراض.

(١) العباءات.

٢. واديا يحفوفة وبردى

إن وصف هذين الواديين يتم لمن ركب القطار الحديدي في عصرنا فإنه يستشرف جميع الأمكنة القديمة والقرى أحسن استشراف وكأنهما خططتهما الطبيعة طريقاً حديدية ليس فيها صعود ولا انحدار يذكر من رياق إلى دمشق، وذلك من أغرب المواقع الطبيعية التي وجدت في العالم للسكك الحديدية لأنها تجاري مياهها السكة صعوداً وانحداراً وتعاكسها في الرجوع لأن نهر بردى يسير من قرب الزبداني إلى الجنوب الشرقي ونهر يحفوفة إلى الغرب فتمثل لراكب القطار أبدع المناظر وأعجب المشاهد ولاسيما ما يحدق بضفتي الوادي من الدساكر والمدن والغياض الغنّاء والرياض الفيحاء ومشاهد الشلالات المائية.

فاذا اجتزنا محطة **رياق** في شرقي البقاع والبعلبك حيث يتعانقان ويتوادعان، دخلت في مضيق جبلي بديع، فتصل إلى قرية جنطة على يسارك على تل صغير، إلى أن تصل إلى موقف (**يحفوفا**) والقرية إلى يمينك وشمالك قسمان في حضيض الجبل ذات بساتين نضرة وقبالها المحطة إلى اليمين ونهر يحفوفة منبعه من فوق **سرغايا** ويمر بيحفوفة فينسب إليها.

ثم إلى موقف (**سرغايا**) والقرية إلى يسارك في سفح جبل أجرد قائم وهي ناضرة بحدائقها ومياهها غزيرة يتصبب الباقي من ينبوعها إلى نهر يحفوفة وسكانها ستمائة نفس من المسلمين وفوقها جبل شاهق. ثم يقف القطار في موقف الزبداني القرية الجميلة المشهورة في القديم بتفاحها إلى يمينك، وهي الآن قصبة قضاء باسمها انسلخ بعضه من بعلبك والآخر من البقاع والباقي من ولاية الشام وعلوها عن سطح البحر ١٢١٣ متراً ومياهها غزيرة وسكانها أقوياء البنية لجودة مائها وطيب هوائها يبلغ عددهم زهاء ثلاثة آلاف نسمة ثلثاهم مسلمون والثلث الباقي روم أرثوذكس وكاثوليك. أما حدائقها ففسيحة وجنانها غنّاء تكثر فيها أصناف الفواكه كالتفاح والإجاص والسفرجل والجوز فتصدره إلى معظم الجهات ووادي بردى مضرب المثل بخصبه. وأظن الزبداني منسوبة إلى زبدا قائد زنوبية (أو زينب) ملكة تدمر أو كما هو رأي صديقي العالم أنيس أفندي سلوم نزيل دمشق وزميلي في المجمع العلمي أنها منسوبة إلى (سيب ستان) أي محل الرائحة وهو لفظ فارسي وهذا يناسبه قول

العرب: (من زار الزبداني فاحت منه رائحة التفاح) لاشتهار تفاحها بالجودة والخصب وحسن الطعم ولطف المنظر إلى يومنا.

ومن أغرب تسمياتها ما رأيته في المقامة (البعلية) في رحلة الأمير عبد القادر الجزائري إلى بعلبك أنها محرّف (زبد الدين) الذي بناها. أو مثنّى زبد ودليل القائل الأول أن النسبة إليها زبداني كالنسبة إلى برهان الدين برهاني.

وقربها نبع بردى. وفي السهل بين الزبداني وسرغايا أطلال قرى غريبة مثل **خربة عين التوت وخربة الغجري وكفرنفّاخ وكفرعامر وخربة الورد وخربة عنبًا وبيت لات** (جنب عطيب نحو ٣ ساعات عن الزبداني) **والدله وتل السفيرة وتل سلوان وعين حليا وعين الرمانة وكوتا وعين الدولة والكبره وتفاحتا** بأرض عطيب. وهناك إلى الشمال (بلودان) على قمة جبل يبلغ ارتفاعها نحو ١٤٧٧ متراً وفيها كرم يسمى كرم باخوس إلى الآن. وبردوخ بلادان ملك بابل سنة ٧٢١ ق.م (...)[1]. وبين سرغايا وبلودان إلى جهتهما قرى قديمة قبالة **عين حور** إلى جهة جبل سرغايا وهي خِرب قديمة مثل (**حوسان**) و(**الزيتون**) و(**خربة وادي الدلة**) و(**غبتا**) و(**منشورة**) فيها الآن بفم وادٍ. وقبالة سرغايا وبلودان بينهما خرب قديمة كمثل (**كوتا**) و(**عين قنية**) و(**المقعد**). وإلى شمالك أيضاً (**عين حور**)[2] وفيها هيكل روماني قديم بلا نقوش ويخرج منها نبع تصب مياهه في نهر بردى. ومنها أسرة عنحوري في دمشق ومنها صديقي الشاعر الشهير سليم بك عنحوري الدمشقي[3]. وإلى يمين السائر إلى دمشق قرب عين حور على بعد نصف ساعة قرية (**حليا**) ولها عين تسمى (عين حليا) ومنها العناحلة المشهورون تقاتل أهلها وخربت وخرج منها أسر كثيرة وسبب القتال أنه جاء رجل وشرب عن رأس بنت تملأ جرتها فتقاتلوا وخربت وتركها النصارى ومنهم العيان حلة وبنوهلال في بلودان اليوم وأسرها إسلامية هم أبو عساف وشديد ومرعي والحاج

(١) عدة كلمات غير مقروءة في الأصل وهي مكتوبة من المؤلف على هامش الصفحة (المحقّق).

(٢) أراها تحريف كلمة (أنحور) وهو إله مصري (المؤلف).

(٣) أديب، شاعر، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، مولده ووفاته فيها ١٢٧٢ - ١٣٥٢ هـ/ ١٨٥٥ - ١٩٣٣ م. أنظر الأعلام للزركلي ٣/ ١١٨ (المحقّق).

حسن دياب. ثم **بقّين** وهي غزيرة المياه ولعلها تحريف (**بني القين**) وهم بطن عربي نزل هذه الضواحي فقيل (بلقين) ثم بقيّن وهم حي من بني أسد (راجع تاريخ دمشق) لعلها نسبة إلى قين. ثم (**مضايا**) أكبر من بقين وهذه القرى مصايف للدمشقيين من مسلمين ونصارى ويهود. ثم (**التكية**) وفيها المحطة وهي بيوت صغيرة لا أهمية لها (لولا بيوت شركة التنوير والكهرباء والتراموي) المستمدة القوة من شلاّل بردى في هذه القرية ومنها قوة وقرب المحطة الحديدية قطعة النمودصحّ[1] (أبيض + أسمر) عليه كتابة رومانية.

وإلى يمينك وأنت في (**التكية**) قرية (**البطرونة**) في سفح جبل الزبداني حيث الموقع تشرف على سهل الزبداني وواديه الخصيب وأمام التكية يأخذ الجبلان بالانفراج. وهناك يخترق القطار نفقاً صغيراً لا يكاد يذكر تحت صخر ضخم ثم إلى شماليك (مغاور التكية) الكثيرة وهي ليست ذات شأن.

ثم تصل إلى محطة (**سوق وادي بردى**) وهي صغيرة. وأما القرية فأسفل المحطة في الوادي وقبلها بقليل إلى شمالي المسافر مغاور وتماثيل أشخاص قرب أبوابها ناتئة بديعة وهناك طريق مخروقة قديماً وكتابات وأقنية وتلول من عظام أناسٍ وحيوان وكتابات تدل على أشياء مهمة في خروق في الجبل لمرور قناة الماء المجرورة كما يروي العامة إلى تدمر.

وفوق (السوق) مزار النبي هابيل على ربوة عالية وشيّدت عليه القديسة هيلانة كنيسة ثم سقطت بزلزلة ونحوها وبعض أعمدتها في الوادي. ثم إلى شمالك (**الكفر**) قرية. و (**برهلية**) مثلها. إلى أن تصل إلى موقف (**دير قانون**)[2] والقرية على يمينك أي إلى جنوبي الموقف. وربما كانت ديراً للقديس (قونن) فحرّف إلى (قانون) ومثل هذه القرية في وادي العجم وفيها آثار قديمة (بهذا الاسم) وهي على حدود أول حوران وقربها **ديرماكر** فيها مقابر قديمة وقبالتها **كناكر** وبينهما أي بين ماكر وكناكر وادٍ وكلها من حوران. والقديس قونن استشهد

(١) لم أفهم الكلمة كما وردت فوضعتها في النص رسماً، علماً أن المعنى هو أن هناك حجراً أثرياً عليه كتابة رومانية كما هو واضح (المحقّق).

(٢) وإلى الجنوب من (دير قانون) على خط متجه إلى دمشق أي إلى الشرق الجنوبي (بطرونة) وهي خراب ولعلها ماطرون المذكورة في شعر ابن المنير، ثم المنشار قبالة الربوة حذاء دمشق ثم (ربله) المشهورة... (المؤلف).

مع ولده سنة ٢٧٥ م يعيّد له في الخامس من شهر آذار واللاتين يعيّدون له في ٢٩ ايار.

ويقابل دير قانون هذه إلى شمالك لجهة الشمال أيضاً (**كفير الزيت**) على تلة يكثر الزيتون حولها فنسبت إليه.

وإلى شماليك[1] بعد ذلك (**ديرمقرّن**) مشهورة برمانها. وإليها نسب بعض العلماء ذكر منهم الشمس محمد بن علي بن طولون الدمشقي في رسالته (مزة؟؟ فيما قيل في المزة)[2] الشهاب أحمد بن ابي طالب الديرمقرني. وذكر في محل آخر ابا جعفر عمر بن محمد بن معمر بن طبروز الدارقرني (ولعلها الديرمقرني) أو خففتها العامة هكذا.

ثم موقف (**الفيجة**). والقرية إلى اليسار وفيها آثار قديمة واسمها يوناني بمعنى (الينبوع) من (**بيجة**) وتنبجس مياهها من جنوبي زاوية المعبد الذي كان على الأرجح قديما للشمس واليوم صار كنيسة خربة ويقال إنه من بناء يستنيانوس مثل هيكل بعلبك وليس قائم منه إلا واجهته حتى العتبة مربع الشكل وحجارته مبعثرة. وقال الاصطخري في كتابه الاقاليم: «ومخرج مائها (**الغوطة**) من تحت كنيسة يقال لها الفيجة وهو أول ما يخرج يكون ارتفاعه ذراع في عرض باع ثم يجري في شعب تتفجر منها العيون فيأخذ منه نهر عظيم أجراه يزيد ابن معاوية[3] بعرض نهر دجلة ثم ينتظم منه نهر المزة ونهر القناة ويظهر عند الخروج من الشعب بموضع يقال له الينوب ويقال إن المياه المنبجسة من الفيجة تؤلف ثلثي النهر والثلث من بردى».

(**كفرعامر**) قرية هي الآن خَرِبة على سفح جبل الزبداني إلى الشمال مقابل بلودان مرّ عليها راهب منذ نحو (خمسة قرون) وقال إنه قصدها للاطلاع على مكتبتها الثمينة.

ومن كفرعامر سار بنو الرفاعي وهم من بني المَدَد من أم عبيدة من محمد السبسبي وبعضهم الصيادي والحريري والجندلي. ومن القرية جدهم ترك كفرعامر هذه هو وأخواه إلى دمشق ويعرفون فيها ببيت صالح المَدَد أو آل الزبداني. وآخر إلى دفون فوق عكاء ويقال لهم آل المَدَد. وإلى حوران الثالث قرب **بصرى** ويسمّون آل الزبداني.

---

(١) شمالك.

(٢) كلمة غير مقروءة في النص.

(٣) توفي عام ٦٤ هـ/ ٦٨٣ م.

وفيها آثار قنطرة قديمة وحجارة ضخمة. بخراج الزبداني قبور ومغاور وقطع فخار وفيها اليوم كروم وتين وسفرجل. ذات نبوع أربعة منها عين الطنطاني وعين حية (حليا) وعين حيدر والمياه قليلة لكنها عذبة.

(**الفيجة**) سمى نبعها ميسلن (فرفر) ومشهور أن فرفر هو الأعوج. وقال إنه نبع الخيرات لخصبه وعاديّاته. والفيجة أغزر من بردى ويصب فيه من شلال على علو مائة قدم وله مجارٍ وأقنية منحوتة بالصخر حتى تدمر وآثارها إلى اليوم. وتبتدئ الأقنية مسافة نصف ميل عن الينبوع بقرب وادي بسيمة على ضفة بردى الشمالية وسعتها قدمان وعلوها خمسة أقدام تمر في الجبل وتنتهي في السهل على بعد ثماني ساعات وتنسب إلى زينب [زنوبيا] الملكة. وفي أجيال الكنيسة الأولى كانت للمسيحيين كنيسة قرب نبع الفيجة كانت قبلاً هيكلاً للعرش وآثارها من أبواب ونوافذ وجدر وأعمدة وكتابة يونانية غير مقروءة لم تزل إلى اليوم. وقرية الفيجة عريقة وأهلها اليوم مسلمون ويؤمها الدمشقيون أوان الكرز وهو نادر في الشرق ويكثر فيها. وعلى عهد سلطان المماليك أخذ من الكرز إلى مصر[1].

في القلمونين الأعلى والأسفل وهما من سورية المجوّفة قديماً

كثيراً ما ورد اسم **قارة** وما يجاورها وقيل إنها من سورية المجوّفة فلذلك أحببت الآن أن نذكر القلمونين من هذه البقعة. اسم القلمون يوناني بمعنى الأقليم والمناخ الطيّب وهكذا سمّاه ياقوت[2] جبل المناخ. ويسمّى أيضاً جبل سنير. وذكر ابن خرداذبة[3] في كتابه (المسالك) في نحو القرن الرابع للهجرة كورة دمشق وعدَّد أقاليمها سهل الغوطة وأقليم

---

(١) أول شجرة كرز أخذها إلى أوروبا ليكونوس القنصل الروماني كانت من كرازيا مدينة في آسية الصغرى فوقعت كلمتها باللاتينية cerasus وبالفرنسية cerise (المؤلف). وقد وردت هذه المعلومة قبل ذلك.

(٢) معجم البلدان ٤/ ٣٩١-٣٩٢ (المحقّق).

(٣) هو عبيد الله بن أحمد (ت نحو ٢٨٠ هـ/ نحو ٨٩٣ م). مؤرخ جغرافي، فارسي الأصل، من أهل بغداد. كان جده مجوسياً، أسلم على يد البرامكة. ابن النديم، الفهرست، ص ١٤٩، هدية العارفين ١/ ٦٤٥، مجلة المجمع ٥٠/ ٤٠٧ (المحقّق).

سنير ومدينة بعلبك البقاع. وكان هذا الجبل القديم بين حمص وبعلبك واليوم هو من **الدّريج إلى البريج**. فالدريج مزرعة في رأس جبل قرب **عين الصاحب** بين **معربا وحلبون**، والبريج على بعد ثلاث ساعات من قارة. وقيل إنه يصل إلى وادي القرن في البقاع.

وجبل القلمون اليوم أقسام متداخلة في ما حولها من الأقضية فقسم منه تابع لقضاء النبك وهو ٢٨ (ثمانية وعشرون قرية) واثنتا عشرة مزرعة. والثاني تابع لقضاء **دومة الشام** وهو ثلاثة[1] عشرة قرية، وقسم منه تابع لحمص وهو الباقي من قراه القديمة.

وعدد نفوس جبل القلمون بإحصاء الحكومة ٥٨١٢٧ نسمة من الذكور وإناث منهم ٤٥٥٧٤ في القرى التابعة للنبك ١٢٥٥٣ في القرى التابعة لدومة وعدد المسلمين في قضاء النبك ٤٠٦٦٠ نسمة، والروم الكاثوليك والسريان الكاثوليك نحو ٣٤٠٠ والباقون أرثوذكس. وعدد المسيحيين في القرى التابعة لدومة نحو ٢٥٠٠ نسمة. ويقسمون القلمون بحسب موقعه الطبيعي إلى القلمون الأعلى والقلمون الأسفل: فمن أهم قرى الأول الغنية المشهورة **يبرود والرجيبة وجيرود والضُمير وقارة والنبك ودير عطية ومعلولا**. ومن أهم قرى الثاني: **التل ومنين وعلبون وتلفيتا وصيدنايا ومعرة صيدنايا**.

وبحسب حالته الإدارية يقسم إلى (**جبة عسال الورد**) لكثرة الورد فيها ومن أشهر قراها صيدنايا.

وإلى الشمال الشرقي (**مقاطعة معلولا**) نسبة إلى معلولا القرية الحصينة المبنية على قمة هناك لا يسلك إليها إلا من مضيق وعر وفيها الدير الشهير وحولها قرى كثيرة مثل **عين التينة وبخعة** وهاتان القريتان يتكلم سكانهما السريانية المحرّفة.

وإلى الشمال الشرقي من مقاطعة معلولا توجد (مقاطعة يبرود) نسبة إلى قرية **يبرود** الكبيرة المهمة وفي جوارها **رأس العين ومعرة باش كردي وفليطة وسحل والقسطل**.

وإلى الشمال الشرقي من (**القسطل**) **النبك** وما بين النبك **والغوطة** يسمى الأرض التحتية أو السفلية وفيها ممر للقوافل من دمشق إلى بغداد. وفي جوار **النبك قارة** وقد ضرب المثل بمناخ البلدتين. قال الشاعر:

(١) ثلاث.

اذا هاجت الرمضاء ذكراك بـرّدت حشاي كـأنـي بين قارة والـنـبـك

وعلى طريق النبك بير قلدون قديم.

وإلى الشمال الشرقي من (النبك) (**دير عطية**) وهما في وادٍ كان يعرف «بوادي الذخائر».

فأهم بلاد جبل القلمون (يبرود) وكانت هي و(النبك) من أمهات بلاد مملكة صوبة وهي مملكة تمتد من شمالي لبنان الشرقي نحو **حمص وحماة وحلب** وهي قاعدة الجبل. و(معلولا) وفي جوارها (**بخعة**) و(**جب عدس**)[1].

ومن أهم قرى قلمون التحتي (**الرجيبة**) و(**جيرود**) وقرب هذه مملحة محيطها اثنا عشر ميلاً في بطحاء تندفع إليها السيول من جوارها فتملأها وينعقد ملحها متجمداً في أوائل أيار إلى ارتفاع مائة سنتمتر في بعض المحال وهو أبيض مرّ. وهناك (**الضمير**) وفيها عين كبريتية يستحم بها ذوو الأمراض الجلدية فيشفون. ومن أغرب ما فيها سرعة نتاج غلالها باكراً وتأخر غلال صرودها مع أن بين المكانين نحو عشر ساعات فقط. و(**القطيفة**) فيها بساتين وهي مقر مدير ناحية تتبع النبك، والذي يظهر من أقوال كثير من المؤرخين أن قارة وبعض مدن القلمون هي من سورية المجوّفة وذلك على ما نرى يتناول القرى التي تناوح الجبل الشرقي من الشرق أي من قرية بريج مقابل القاع والهرمل في بلاد بعلبك إلى ضواحي دمشق فيدخل فيها **البريج وعين علق وقارة ودير عطية والنبك وقطيفة** على الخط الشرقي، وإلى غربيه على خط **قارة يبرود ورأس العين ومعلولا وجب عدين وصيدنايا ومعربا** ووراءها **دوما** وهي أهم مدن تلك البقعة.

و(**تل افطايا**) تابعة القلمون أصلها من قضاء بعلبك تعلو عن البحر أكثر من ١٧٠٠ متر، وفيها قصر في **الجوزة** قربها أشبه بدار السعادة في بعلبك معظمه قائم بأروقة وأعمدة كبيرة نحو المدرسة العادلية بدمشق.

عين الجوزة ذكرت في كتب فتوح الشام وهي من جبل القلمون (غير دير [عين] الجوزة قرب صغبين في البقاع).

(١) أهل معلولا نحو ثلاثة آلاف وسكانها يتكلمون السريانية المحرَّفة وكذلك سكان بخعة وجب عدس. كان أهل علبون يتكلمون التركية المحرَّفة لأن أصلهم تركمان، وكذلك سكان دنحة والمكنيسة وخربوشة، يتكلمون التركية محرّفة (المؤلف).

الفصل الرابع

في المناخ والري والسدود والينابيع والأنهر

[المظاهر الجوية]

للمظاهر الجوية في البقاع شأن كبير ولاسيما جهة كسارة وضواحي زحلة.

مرصد كسارة[1]: سنة ١٩٠٨م أنشأ الأب برتولي اليسوعي مرصداً في كسارة قرب زحلة وأرصد له جميع المعدّات اللازمة للمراصد وأقام له الأبنية اللازمة متفرقة بعضها عن بعض لضبط الرصد ومنه يعرف رصد الكواكب ومراقبة الزلازل ومجاري الهواء والزوابع وطوارئ الجو.

فرصد فيه حركات الجو والتقلبات الفلكية كمهب الرياح والضغط الجوي وهيئة الغيوم ودرجة الحرارة وكمية الرطوبة والأمطار ولاسيما الزلازل الأرضية، فإنه أعدّ لها آلات دقيقة تدوّن حركات الأرض من نفسها.

وهو يدوّن أرصاده ثلاث مرات في النهار ثم ينشره في لائحة شهرية يرسلها إلى المراصد الأوروبية حتى إلى اليابان والولايات المتحدة الأميركية وتطبع اللائحة بمطبعة اليسوعيين في بيروت. ومن أدق أرصاده مذنب هلي سنة ١٩١٩.

قال البشاري في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) طبع ليدن (هولندة سنة ١٨٧٧) الصفحة ٢٧٩: «وأشد هذا الأقليم برداً بعلبك وما حولها (ومن الأقاليم أمثالهم) قيل للبرد: أين نطلبك؟ قال: بالبلقاء. قال: فإن لم نجدك؟ قال: بعلبك بيتي».

ري الأرض بالسدود والأنهر والبحيرات

عرف القدماء فائدة المياه في ري الأراضي، فاتخذوا كل الذرائع لسقياها واستثمارها،

---

(١) كسارة أرض ابتاعها المرسلون ثم تركوا قسماً منها (المؤلف).

وربما كان أول من عرف ذلك المصريون للاستفادة من نهر النيل الذي يخترق بلادهم، فاتخذوا السدود والترع لريِّها بأوقات مختلفة ولاسيما لقلة الأمطار في بلادهم التي هي بعيدة عن ينابيع النيل.

وكان السومريون في الشرق أول من اتخذ السدود للأنهر وتفريق المياه على الأرض في العراق وسورية الشمالية من نهري الرافدين دجلة والفرات والعاصي وغيرها.

منها سد بحيرة **قدّس**[1] قرب حمص وهي بحيرة واسعة يصب فيها نهر العاصي الكبير الذي يخرج من بلاد بعلبك ويصب في السويدية قرب المجر (وهي سلوقية القديمة)، وجاراهم بذلك الحثيون ومن جاء بعدهم أو كان قبلهم من الآشوريين والبابليين والكلدانيين والروتانيين والآراميين واليونان والرومان والعرب.

ومن سدود العرب القديمة (سدِّ العرم) في صنعاء اليمن.

ومن السدود الرومانية في أراضي حوران وما إليها سدود محكمة في وادي الزيدي الشهير الذي يبقى مدة ثلاثة أشهر متوالية تجري فيه المياه كالأنهر الغزيرة المياه ولا سيما في شهري نيسان وأيار، وفي هذين الشهرين تكون الأراضي المزروعة بأمسّ الحاجة إلى المياه لتنمو الزروع وتخرج السنابل الملأى بالحبوب. ولكن للأسف قد تهدمت أكثر هذه السدود لقلة العناية بها وأصبحت الأرض مجدبة لا تعطي غلاتها بخصب وافر. لأن أراضي حوران قليلة المياه تحتاج إلى مجارٍ ترويها ولا سيما بعد أن قلت الأمطار لقلة الأشجار أو لتقلبات الجوّ وتغيّراته فتكثر الأمطار سنة وتقل سنوات. فتحرم البلاد اقتصادياتها ومواردها الزراعية الطبيعية لأن أسباب العمران أساسها الزراعة ثم الصناعة ثم التجارة وعناية الإمارة بها هي روحها وعمادها، فلماذا نهمل نحن ذلك حتى يقال عنا بلسان أراضينا الماحلة[2] العطشى: «أيا عطشي والماء يجري» أو كما قال الشاعر[3]:

---

(١) أنظر معجم البلدان ١/ ٣٥٢، ٤ / ٣١١.

(٢) يقال أرض ماحلة وأرض قاحلة، والمعنى هو هو، أي أرض لا نبات فيها ولا زروع لقلة الأمطار وعدم توافر مياه الأنهر التي ترويها (المحقّق).

(٣) ديوان طرفة بن العبد، ص ١٧٨ (المحقّق).

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمولُ

فنحن اليوم مع كثرة الاختراعات والاكتشافات والاجتهاد في إحياء موات الأرض، نرى المحل يضربنا ضربات أشد هولاً من ضربات بني إسرائيل في مصر، فلماذا لا نعتني بجر المياه من ينابيعها أو أنهرها أو سدودها أو بحيراتها أو خزاناتها كما كان يفعل أسلافنا، فنحتاج إلى درس هندسي زراعي في أقطارنا؟

١- لماذا نهمل طرق جر المياه من أحواض نهر قويق في شمالي سورية الذي يخترق مدينة حلب وخزنها في الشتاء؟

٢- وجر نهر الساجور الذي ينساب في سورية من مرتفع قرب جسر (أقجة قويونلي) لأن مياهه على تقدير المهندسين تبلغ في الصيف بجريانها نحو ثلاثة أمتار مكعبة فيمكن إيصالها إلى قضاء الباب في حلب. وكذلك خزن مياه الشتاء الغزيرة المتدفقة بالقرب من قرية (برشايا).

٣- جر الأحواض المرتفعة من (نهرعفرين) وخزن مياه الشتاء فيها وتوزيعها في الصيف على الأراضي المحدقة[1] بها التي تقاسي الظمأ الشديد القاتل. وذلك يتم بتجفيف العمق وتعديل مجرى نهر (قره صو) من منبعه في أنطاكية. وبتعديل خزانات مياه نهرعفرين شتاءً للانتفاع بها. وكذلك الينابيع وغيرها في تلك المناطق الواسعة لتحويلها إلى حدائق غناء.

٤- جر مياه غوطة دمشق والمرج وحوض نهر بردى وخزن مياه الشتاء فيه لسقي أرض المرج وما حولها.

٥- جر حوض نهر الأعوج (فرفر) وخزن مياه الشتاء للانتفاع بها في الصيف.

٦- جر مياه (اليرموك) في جهات القريتين والقطيفة والفرقاس وبير المزاريب وبير البيضا والشيخ أبو الفوارس وتدمر ومسكنة وضواحيها. وقناة الأشرفية والغوطة إلى قطنا في

---

(١) أحدق بالشيء أحاط به، ومنه حدقة العين أي السواد وسط العين، وتسمّى أيضاً إنسان العين، والحديقة كل أرض شجر مثمر ونخل أحاط به حاجز. راجع: المعجم الوجيز، ص. ١٤٠ (المحقّق).

وادي العجم لاستثمار المناطق الممتدة بين سلسلة الجبال شرقي دمشق الشمالي إلى ضُمَير وخان أبي الشامات وخان الطراد وبير بصوري وخان حلبات وبير السحرية.

أما كانت براري تدمر كما دلت الآثار القديمة خصيبة جداً في تلك العصور السالفة كما قررت ذلك البحوث الحديثة وتقارير المهندسين البارعين منها تقرير مدير مصلحة الري المهندس مياناليس الذي رفعه إلى وزير الزراعة السورية في خريف سنة ١٩٢٩م كما ذكرت الصحف.

ففي سورية نهران عظيمان العاصي والفرات، فللعاصي (بحيرة قدس) السدّ القديم الذي يكوّن بحيرة عظيمة فسيحة تسمى الآن بحيرة قطّينة ولعلها باسم (الحثيين) الذين اشتهرت بأنها عاصمتهم وفيها حدثت الحروب الدامية بينهم وبين فراعنة مصر كما وصف ذلك بنتاؤور الشاعر المصري الذي رافق رعمسيس الثاني سنة (...) ق.م.[1] وقد رأى كاتبه مؤلف تاريخ سورية المجوّفة تلك القصيدة منقوشة على مسلّة في هيكل الكرنك في الأقصر سنة ١٩٣٥م حين زار تلك الربوع وهو عضو مجمع اللغة العربية الملكية المصري.

فبحيرة حمص (قطّينة وقَدَس) عمقها متران ومساحتها ٣ آلاف هكتار مياهها نحو مائة مليون متر مكعب يسقى بها أرض مساحتها ١٦ ألف هكتار إذا أسقطنا منها ٥ في المائة للتبخر وخمسة في المائة لضياع المياه عند جريها وانسيابها في المجاري والسواقي.

الري في لبنان

قرر مجلس الوزراء اللبناني في ١١ تموز ١٩٢٩ أن يقسم الري إلى ثلاثة أقسام (الأول) يتضمن:

---

(١) بياض في الأصل. والفعلي أن المعركة جرت حوالى العام ١٢٧٤ ق. م بين جيش مصري يقوده رعمسيس الثاني فرعون مصر وجيش حثي يقوده الملك مواتللي قرب مدينة قادش على الضفة الغربية لنهر العاصي جنوب بحيرة حمص. ولم ينتصر فيها أحدهما وإن ادَّعى كل منهما النصر، لأن نتائج المعركة لم تكن حاسمة، وتأخر توقيع معاهدة السلام بينهما حتى العام ١٢٨٥ ق.م. وهي معاهدة السلام الأولى في تاريخ البشرية كما يُعتقد. وهناك نسخة طبق الأصل منها في مقر الأمم المتحدة في نيويورك. راجع موقع ويكيليكس الالكتروني، تاريخ الحضارات العام، منشورات عويدات، بيروت، ط. ٣، ١٩٩٣، ص. ٥١ (المحقّق).

١- ري سهل بعلبك من مياه بحيرة اليمونة في سفح لبنان الغربي مقابل بعلبك. وبُدئ بالعمل نحو سنة ١٩٣٥.

٢- ري سهل البقاع من مياه الأنهر والينابيع الآتية: الليطاني والفاعور وعنجر والغزيّر والبردوني ونهر قب الياس وعميق وعين تربل ومكسة ويحفوفة والخريزات قرب خربة قنافار ونبع شتورة.

وكذلك الري في سهول الساحل بين بيروت ونهر الكلب من مياه الديشونية ونبع أنطلياس ومياه نهر الكلب.

(الثاني) مشروع ري ساحل البترون من مياه نهر الجوز.

(الثالث) مشروع ري أراضي زغرتا من مياه نهر رشعين.

أما مياه القاسمية وري الأرض بمياهه، فما زال تحت الدرس وكذلك ري سهل عكار.

(أما مياه بحيرة اليمونة) في اليمّونة من قرى البقاع وهي سريانية بمعنى (اليم الصغير) أي البحيرة فموقعها في سفح الجبل الغربي اللبناني علوها عن سطح البحر ١٤٠٠ متر وهي منحصرة بين جبلين يحجبها أحدهما وهو الأصغر عن سهل بعلبك وهي تبعد عن بعلبك مدينة الشمس ١٥ كيلومتراً تصل إليها السيارات. وفي اليمونة قلعة ومعابد قديمة.

ومياهها عذبة باردة وهواؤها عليل بليل. وتقدر مياهها بأربعين سُكر ماء (مجرى أو ساقية) تتفجر من نبع الأربعين (لأن الماء تظهر حوالي عيد الأربعين شاهداً) في ٩ شهر آذار بعد سقوط الثلوج فتكون هذه المياه النصف والنصف الآخر في البحيرة من عشرة ينابيع أخرى تنفجر من جوانب البحيرة ويجف نبع الأربعين في أواخر تموز.

ومساحة هذه البحيرة نحو ألف دونم (الدونم ١٦٠٠ ذراع مربع ومبذر نحو مدّ قمح) تصب فيها مياه الأربعين وبقية الينابيع.

ولنبع الأربعين هذا سدّ عظيم بناه أولاً الرومان لرفع المياه إلى مرتفع تجري منه لسقيا الأرض حولها لأنه أوطأ منها. وهذا السدّ تهدم. وجاء بعد ذلك نحو سنة ١٨٨٨ رجل من الشوير اسمه جرجس الشويري واتفق مع الأهلين وبنى سدّاً جديداً ولكنه لم يثبت فهدمته

المياه عند فورانها فأعادهُ ثانية وبقي إلى الآن فتهدم نحو سنة ١٩٢٦. ومياهها تدير أربعين حجر رحى. ويمكن تسيير زوارق بالبحيرة وفيها سمك لذيذ.

وكان نحو سنة ١٨٩١ إلياس شبلي المعلوف من شليفة قد سعى مع شركة مياه الضبيّة (في بيروت) لجر هذه المياه إلى الأرض التي حولها وريها وكان مؤلف (تاريخ سورية المجوّفة) كاتبه عيسى اسكندر المعلوف يرافقه من بعبدا إذ كان يحرر جريدة لبنان فيها إلى مدير الشركة ويترجم له، فبعد أن أرسلت الشركة وفحصت المياه وعزمت على العمل، عارضها بعض أرباب المطاحن هناك مثل آل المطران وحيدر وغيرهم فأوقف العمل.

ثم استأنف هذه الفكرة مصطفى بك حيدر وفريد بك الهراوي من بعلبك فطلب في العهد التركي امتيازاً بجر مياه اليمونة وتوزيعها لسقي القرى الآتية وذلك نحو سنة...[١] وهي: دير الأحمر وبتدعي وشليفة وبوديه والسعيّدة وكفردان وحدث بعلبك وتقدر مساحة هذه الأرض بستين ألف دونم. وقدر النفق الذي يخرق في الجبل لمجرى المياه بطول نحو ألف وثمانمائة متر.

اتفق حيدر وهراوي على امتلاك أرض البحيرة التي تجفف بعد أخذ الامتياز وعلى تقاضي بدل من أصحاب الأرض عن تمليك حق الشرب. وقيمة المجفف نحو عشرة آلاف ليرة وقدر لهذا المشروع إيجاد شلال علوّه ١٥٠ متراً تتولد منه قوة كهربائية تنير من بعلبك إلى حلب. وتصير قيمة الأرض ثلاثة أضعاف ثمنها الحالي ويصير القسم الغربي من بعلبك جنة خصيبة تجري من تحتها الأنهار. وبينما الحكومة تقرر[٢] الترخيص لطالبي الامتياز، فاجأتنا الحرب الكبرى فوقف العمل.

---

(١) هكذا في الأصل، ويبدو أن تلك الفكرة راودت أحد الرجلين أو كلاهما عام ١٩١٢ أو ١٩١٣، ولكن اندلاع الحرب الأولى عام ١٩١٤ - ١٩١٨ أودى بالفكرة، باعتبار أن الدولة العثمانية انخرطت فيها (المحقّق).

(٢) تقرر هنا بمعنى تدرس كي تتخذ القرار بالترخيص، الذي لم يكن قد جرى الوصول إليه في حينه بعد (المحقّق).

الشلالات

الشلاّلات: أعظمها شلاّل الكوّة الذي يتكون من نهر الليطاني بعد أن تصب فيه خمسة أنهر هي نهر البردوني ونهر الغزيّر ونهر قب الياس ونهر الخريزات ونهر شتورة فيتخلل سهل البقاع منساباً إلى غربه إلى أن يصب في البحر المتوسط وقبل أن تصل مياه الأنهر إلى الليطاني تخترق جبالاً على مسافة نحو عشرة كيلومترات من قصبة مشغرة وتخرج من فوهة عظيمة وتهبط بشلاّل علوّه مائة متر، وهو أكبر شلاّل في الشرق. وشلال البقاع هذا يسمّى شلاّل كهف الحمام فوق جسر الكوّة من الليطاني. وقد فحصه أحد كبار المهندسين الفرنسيين فقدر أنه يتولّد منه قوة ٦٠ ألف حصان كهربائي يستطيع بها أن يسيِّر قطاراً كهربائياً يخترق سهل البقاع إلى حلب عدا ما تكتسب أرض البقاع كلها من فوائد السُّقيا به.

شلّال الكوَّة: بين الكوّة وكهف الحمام – نظارته جيدة. وفي هذا الشلّال تتدفق كل مياه الليطاني مجتمعة هناك. وموقعه قرب مشغرة على بعد ساعة إلى المشرق في الجبل الغربي.

دوَّار عين الزرقاء: تحت كهف الحمام. وتحت نبع قرية (مَرْكَبَة) على الليطاني.

شلاَّل نبع الأربعين في اليمونة.

شلاَّل قرب الرستن وقطينة: علوهُ أربعون متراً وهو أهم من (شلال بحيرة قطينة) الذي يحتاج إلى عملية فنية لتوَّلد منه الكهرباء بقوة ألفي حصان. مع أن شلال الرستن يولِّد قوة أربعة آلاف حصان تدير حوافل (تراموای) يوصل حمص بحماة ويدير حوافل فيهما. وقد بحث فيه بعض المهندسين.

في مائها وهوائها

نهر الليطاني: قال مسبرو في كتابه (شعوب المشرق) في محال مختلفة وميلانج ١/١٤١ ما معناه: كان نهر الليطاني على الأرجح أحد حدود الأرض المقدسة، تسريح الأبصار للأب لامنس (٢:٢٢). وأما نازانا (الليطاني) فيخرج من أنتيليبان على بعد بعض كيلومترات من العاصي (أي منبع العاصي) وهناك يسيل نحو الجنوب الغربي وكلما ابتعد عن ينبوعه يضيق به السهل شيئاً فشيئاً فيخنق مسيره حتى لا يصبح إلاّ مضيقاً عمقه ثلاثمائة

متر ضيقاً جداً، حتى إن الصخور التي تتساقط من جوانب الجبل تعقد قنطرة فوقه. ولا يخرج النازانا من هذا المضيق حتى يصبّ حالاً في البحر بعد أن يكون قد سار من منبعه مسافة ثلاثين ميلاً. فلهذا كان وادي العاصي ووادي الليطاني دائماً إهراءً للشعوب المتتابعة التي ملكت هنا، فبعد أن كانت سورية المجوّفة هذه مختزن الفاتحين من المصريين والأشوريين والفرس والمكدونيين انتهت بأن تكون أخيراً إهراء العالم في زمن رومية.

يكّون منبع الليطاني الذي ينش من محلات مختلفة بركة صغيرة مدورة فيها بُلْعُط وهي فايشة صغيرة[1].

نهر الليطاني مخرجه من نبع بَرَدى إلى الشرق الجنوبي من قرية السُعَيْدة وإلى غربيّ قرية حَوْش بَرَدى مقابل بعلبك، أما نبع العلّيق فيسير إلى الشمال الشرقي ويختفي بالأرض في بواليع تكثر عندها المستنقعات وليس هو نبع الليطاني كما توهم بعضهم. وينساب الليطاني في سهل بعلبك والبقاع إلى الجنوب بتعاريج كثيرة، وينصبُّ فيه نهران كبيران نهر البردوني من زحلة يصبّ تحت معلقة زحلة عند الفيضة (عرجموش). وبعد ذلك نهر الغزيّر من عنجر (كلشيس) وغيره. ويمتد الليطاني على طول ١٨ كيلو متراً[2]. وسمّاهُ القدماء (نازانا) Nazana وأطلقوا على ما يحدق به من سهول (وادي نازانا). كما أطلقوا على ما يحدق بنهر العاصي (وادي العاصي). وما يحدق بنهر يحفوفة (وادي يحفوفة) وهكذا قل في (وادي بَرَدى). فتكون حياة هذه السهول أنهرها الجارية الغزيرة. وبركة نبع بَرَدى بين أرض السعيّدة وكفردان وحوش بَرَدى إلى شرقي سعيدة وشرقي كفردان وغربي الحوش (أي حوش بَرَدى). وبين نبع العلاّق الذي يسير إلى الشمال إلى رجل الحرف أمام شليفة شتاءً وفي الصيف إلى عند تلّ (الخِربة) بأرض بودّيه والبركَة نحو أربعين ذراعاً بعشرين دائماً فيها مياه ومنها يجري الليطاني بين أرض كفردان والحدث ثم بين أرض طاريه ومجدلون

---

(١) ينش، يرشح، والمقصود أنه غير متدفق. أما فايشة فتعني أن البركة قليلة العمق، والبلعط الذي يشير إليه المؤلف هو أنواع من الأسماك النهرية الصغيرة الحجم (المحقِّق).

(٢) المعروف أن نهر الليطاني طوله قرابة ١٧٠ كلم، وهو يصب في البحر شمالي مدينة صور، بعد أن ينحرف غرباً باتجاه البحر المتوسط، وقد يكون المؤلف قصد هنا من منبعه حتى انضمام نهري البردوني والغزيّر، أو الغزيّل كما يلفظها العامة، له (المحقّق).

وبين حوش سنيد وكفردبش ثم حوش الرافقة وبيت شامة. بين نبع بردى والعلاّق نحو ربع ساعة ويفتح منفذاً صخرياً عند سُحْمُر ويُحْمُر حيث فوقه جسر طبيعي.

ويسمّى عند مصبه قرب صور بالقاسمية، لأنه كان فاصلاً بين باشوية عكاء وولاية صيداء[1] فقسمهما، أو نسبة إلى مزار القاسم الذي يمر بقربه. قال شيخ الربوة في كتاب (نخبة الدهر) صفحة ١٠٧ ما نصّه: «ثم نهر ليطا وأول منبعه من أرض كرك نوح (عم) ثم يصب إليه أعين وأنهار وهو يمتد في ذيل جبل لبنان حتى يمر بجبال مشغرا وتمدّهُ منها أعين كثيرة ثم يمر بالجرمق ثم بالشقيف وهي قلعة عظيمة حصينة ثم يعظم هناك ويمرّ فيصبّ في البحر الرومي بالقرب من صور» (أ. هـ). وقال أيضاً في صفحة ٢١١: «ومن البلدة والأعمال المضافة إلى صفد ثغر شقيف وهو حصن منيع فتحه الملك الظاهر من الإفرنج وله عمل واسع ونهر لَيطة».

ويظن البعض أن الليطاني تحريف (لاونتوس) وهو اسمه عند الرومان واليونان والذي عليه المحققون هو أن كلمة لاونتوس هي تحريف لودانيون أو روثانيون فالأولى أن تكون الكلمة العربية من هذا القبيل فقيل النهر الروتاني أو اللوداني وحرّف (الليطاني) لقرب المخارج وتجانس اللفظين فتدبّر.

وروى البطريرك مكاريوس بن[2] الزعيم الحلبي مؤرخ الملكيين من أهل القرن في كتابه (النحلة) وفي كتابه (الرموز) الرأس الثاني: «اعلم أن النهر الذي في البقاع اسمه بالرومي كيصصون[3] وهو نهر الليطاني ومنبعه فهو من شرقي جبل لبنان وأما البقاع فتدعى بالرومي صانيور».

---

(١) عكا وصيدا، وأنّى وردت فهي كذلك، ومثلها أوربة التي يوردها المؤلف من دون واو بينما هي أوروبة، وهكذا كانت ترد هذه الأسماء في المؤلفات القديمة (المحقّق).

(٢) ابن.

(٣) ربما كانت كيشون بمعنى المقطّع. أو أن الكلمة من لفظة (كِيْصُوْص) اليونانية للنبات المقدس المخصص بباخوس إله الخمر. فقالوا (كِيْص حُنْون) ثم كيصُون أي المحل المغشى بالنبات المذكور وهو الخلبلاب أو حبل المساكين أو اللبلاب أو العاشق وهو Lierre بالفرنسية وأما بالإنكليزية فاسمه Jrory (المؤلف).

الليطاني: يقذف في البحر أكثر من مليون متر مكعب في ٢٤ ساعة بين صور وصيداء على بعد ثلاثين كيلو متراً من صيداء وهذه البقعة التي يخترقها هي فينيقية القديمة الحقيقية، وهذه الأربعون كيلو متراً من الأرض الساحلية (أي سبعة آلاف هكتار) كانت تأوي نحو مليون من السكان وبساتين الليمون حول صيداء[1] كان دخلها قبل الحرب مليون فرنك. والسهل من البقاع إلى حلب مساحته أكثر من ثلاثمائة ألف هكتار يسقيه نهران متعاكسان أي الليطاني والعاصي.

نهر بَرَدى: ويقال بَرَدَيّاً كما في ياقوت وهو نهر دمشق المشهور[2]. ومخرجه كما ذكر ياقوت من قرية يقال لها قَنْوا[3] من كورة الزَبَداني على خمسة فراسخ من دمشق مما يلي بعلبك يظهر الماء من عيون هناك. وأشبه بفوار من أرض رملية في سفح صخور عالية تحدّد من جهة الشرق سهل الزبداني[4]. ويرتفع عن دمشق ١٤٩ قدماً ويجري إلى الجنوب ويتكوّن منه عند انصبابه بحيرة. ويسير إلى الجنوب الغربي من الزبداني فيمر بمحلّة التكيّة حيث اليوم مولّد الكهربائية إلى دمشق للتنوير ولتسيير الترامواي الكهربائي في بعض أحيائها لأنه هنا يكوّن شلّالاً ويسير في وادٍ ضيق بين سوق وادي بردى ومغاورها، ثم يمرّ في ذلك الوادي العميق المسوَّر بالصخور العالية وعلى ضفته البساتين النضرة والأرض الضيقة الخصيبة ويصبّ فيه نبع الفيجة على بعد ست مائة متر عن منبعه أو ثلاثة وعشرين ميلاً[5]. ويبقى منساباً في الوادي الضيق إلى قرب دمشق. وياقوت يقول إنه عند قرية جِمْرايا يفترق ويصير معظمه في بردى ويحمل الباقي نهر يزيد الذي حفره يزيد بن معاوية في سفح جبل

(١) صيدا... صيدا... صيدا في ثلاثة مواضع سابقة. وأنّى وردت صيداء فهي صيدا وعكاء هي عكا كما سبق ذكره.

(٢) معجم البلدان ١ / ٣٧٨-٣٧٩.

(٣) معجم البلدان ٤ / ٤٠٩.

(٤) ويسمّى نهر بردى نهر أبانة أو ابنا (عبرانية بمعنى مياه الصخر) وبمعناها بانة ومخرجه من منقلب الجبل الشرقي على بعد ٢٣ ميلاً عن دمشق وهو أرفع [أعلى] منها بنحو ٤٠٠ متر أو ١١٤٩ قدماً (المؤلف).

(٥) هكذا في الأصل، ويبدو أنه يتحدث هنا عن المسافة بين منبعه ووصوله إلى دمشق (المحقِّق).

قاسيون[1]. ومتى وصل بردى إلى قرية دُمَّر افترق ثلاث شُعب نصفه لبردى والنصف الثاني ينشطر نهرين أحدهما نهر ثَوْرا في شمالي بردى، والثاني باناس في جنوبيه. وتمتزج هذه الأنهر الثلاثة في الوادي[2] ثم في الغوطة ويخترق بردى دمشق ويصبّ في بحيرة المرج في شرقيّها وتسمَّى البحيرة الشرقية على تخوم البادية.

والربوة تبعد نحو ثلاثة أرباع الساعة أو ساعة عن دمشق وفيها تنفصل مياه بردى سبعة أقسام ثلاثة إلى اليمين وثلاثة إلى اليسار ونهر بردى في وسطهما. والمزة إلى شرقي الربوة على بعد عشر دقائق عنها حيث يمرُّ بردى.

ومصدر ينبوع بَرَدى من سفح جبل الزبداني في المنقلب الشرقي منه إلى الجنوب الغربي على بعد ساعة ونصف وهناك يكوّن بحيرة [فيها] سمك، وينصب فيه نبع الزبداني من عين النابوغ شمالي البلدة ثم يجري من عين حور نبع آخر ينصب فيه. وفوق مضايا عين سرايا. ويقال إن فوق الزبداني بين كفريبوس والزبداني بمحلة ضهر القاموع هذه تصل إلى مياه يرجح أنها نبع بَرَدى.

وسمَّى اليونان هذا النهر خرسيورّواس أوبردنيس. والأول بمعنى حالب الذهب أو مجرى الذهب وبه لقِّب يوحنا الدمشقي بمجرى الذهب[3] وفي بعلبك قريتان بعيدتان عنه تسمَّى إحداهما حوش بَرَدى والثانية حوش الذهب.

نهر البِردَوْني: إما تحريف بَرَدى كما مرَّ وإما من البِرْذَوْن الفارسية وأصلها بِرْدَنْ بمعنى الاشتداد في العَدْو وهذا النهر شديد الجري إلى الليطاني. وفي الصيف تستخدم مياهه لسقي الأراضي والبساتين فيجف ولا يصل [ماؤه] إلى الليطاني فيبقى مجراهُ كأثلام متعرجة في السهل صيفاً وخريفاً.

(١) معجم البلدان ١/ ٣٧٨ - ٣٧٩.

(٢) يسمّى قليط عند خروجه من دمشق لأوساخه. ويقال إن سليمان الحكيم قالت له زوجته ابنة حيرام: جرّ لي الماء منَ الربوة (هذه) واللَبوة قرب بعلبك فجرّها (المؤلف).

(٣) قديس من آباء الكنيسة ومعلميها، قاوم بدعة محطّمي الصور. ألف في اللاهوت والفلسفة والخطابة والتاريخ والشعر والألحان الدينية. من كتبه المنقولة إلى العربية «منهل المعرفة» (المحقّق).

ولعلها [بردى] يونانية (بَارِيْذُوْ نِيُّوس) من (بَاري) بمعنى (حوله) و(ذونيُّوس) الزلازل أي حوله الزلازل.

أو من (بر) ابن ودادوني ثون أي ابن تموز (رأي الدكتور أمين بك المعلوف).

وقال شيخ الربوة في (نخبة الدهر) صفحة ١١٤ ما نصّهُ:

«ونهر دمشق وسيأتي وصفه عند وصفها وانبعاثه من مرج الزبداني ومن عين الدلة (وبنسخة الدولة) من فوق الزبداني ومن عين الفيجة ومن أعين في طول وادي بَرَدا وأصل عين بَرَدا من تحت جبل في مرج الزبداني بجنب قرية يقال لها السفيرة وفي هذا الجبل هوَّة عظيمة لم يعلم لها قرار بل يؤخذ حجر عظيم يحمله رجلان أو ثلاثة فيلقى في هذه الهوَّة لم يسمع له حسّ. ومن عجائبه أنه إذا طلع من الهوّة بخار ولو كان في أيام الصيف يخرج السحب وتمطر وهذا صحيح مجرب (أ. هـ)».

نهر العاصي

منبعه من (عين الزرقا) فوق الهرمل على بعد ساعة وفيها سمك بديع وعلى مقربة منها (دير مار مارون) في مغارة صخرية. والقائم (القاموع) على بعد ٢٢ ساعة عن الهرمل إلى شماليها والمنبع إلى جنوبي القاموع والينابيع من سفح الجبل كثيرة منها (نبع اللبوة) إلى جنوبي رأس بعلبك على بعد ثلاث ساعات منها. وهذا الينبوع ينزل في وادي المَجَرّ ويمر بأرض الفيكة ثم بأرض رأس بعلبك ويصل إلى نبع العاصي. ومن اللبوة قناية تمر تحت الرأس وعليها مطاحنها ثم تنزل إلى القاع. ويقال إن هذه المياه التي هناك كان سليمان قد جرَّها إلى تدمر وفيها آثار أقنية قديمة. واللبوة فيها آثار سور. وكانت البلدة قديماً تحت المياه فنقلت منذ بضع سنوات إلى ما فوق المياه لكثرة مستنقعاتها وتفشي الأمراض فيها. وهي الآن على بعد نصف ساعة إلى شرقي القديمة. وعيون الهرمل التي للشرب من غير الزرقاء وفي الهرمل الجوز البديع منها (جوزة الكرَّة) بديعة كبيرة كالشمس وقاموع الهرمل إلى شمالي البلدة.

قال أحد السياح لما مرّ بالعاصي وواديه الخصيب: «إن أشد عارٍ أراه في قوم يجاورون

العاصي أن يرضوا بمعيشتهم الحالية... لو قيض لي مجاورة هذا النهر ومراقبة المسافة التي يتخللها وهي مائة وعشرون ميلاً والتوصل إلى الانتفاع الغني بمياهه الغزيرة لأحرزت ثروة لاخلاف [أنها] لا تنفذ مع تراخي الأيام فضلاً عن زيادة صادرات البلاد وتضعيف موارد الارتزاق فيها». وذلك قاله متأثراً لفقر الأهلين ومهاجرتهم.

وقال الدكتور جورج بوست الجرّاح الأميركاني الشهير: أعطني العاصي وواديه والاردن وجانبيه وأنا أضمن لك أنه لا يجوع ولا يعرى أحد في سورية.

وأما اسمه فالأرجح أنه تحريف كلمة (اكسيوس) جيحون[1] سماه بها اليونان فحرفه العرب (آسيوس) ثم (آسي) ثم عاصي. ولا وجه لقولهم إنه سمي العاصي لانقلاب مجراه من الجنوب إلى الشمال. وأكسيوس (Axius) نهر في مقدونية بمعنى المتوازن يدعى الآن (دستيرستا)[2].

العاصي: قال مسبرو طبعة جديدة عندنا صفحة ٢١١: «سورية يسمونها (خارو) أو (شارو) مشتق من خوريم وكان يطلق على مساكنهم فقط وهي في الجنوب الغربي من بحيرة لوط. ثم المصريون أطلقوها على بلاد كنعان كلها ثم على سورية. فهذه المقاطعة سلسلتا جبال متوازيتان، الغربي والشرقي لبنان وسطهما وادٍ يسقيه على طوله (نازانا) أو الليطاني والأورنط (العاصي).

فالعاصي مخرجه من أنتيليبنان (مقابل لبنان) وهو يتألف من تجمع جداول (سواقٍ) وغدران كثيرة (نادلاً) يسيل إلى جهة الشمال الغربي فعندما يصل إلى السهل يتحول نحو الشرق وحينئذ يمر ببحيرة طولها نحو ثلاثة أميال وعرضها ميل واحد. وحينئذ يميل إلى الشمال ويمر موازياً لشط البحر باستواءٍ إلى أن يصل إلى درجة الـ٣٦ من العرض وهناك

---

(١) نهر عظيم، مخرجه من بلاد الروم من عيون تعرف بعيون جيحان، ويخرج إلى البحر الرومي وهو بحر الشام، وليس عليه للمسلمين من المدن إلا المصيصة وكفربيا ومجراه بينهما. وجيحون هو نهر بلخ (المحقّق)

(٢) قال الأب لامرتين اليسوعي في تاريخ لبنان، ص. ٥٨: (غير أن أصل الاسم يوناني وذلك لأن المقدونيين الأولين لما سموا حماة بيلا Pella اسم وطنهم سمّوا هذا النهر أيضاً باسم اكسيوس الذي يسقي أراضي بلادهم بطلم ٣٠ وبيت لبيت ٤٤) (المؤلف).

يتجه فوراً نحو الغرب ثم نحو الجنوب منحدراً ليصب في البحر بعد أن يقطع مسافة ستين ميلاً يجري فيها جرياً شديداً خارقاً للعادة، ومن هناك اشتقاقه العامي الآن في (العاصي) أي النهر المتهيّج وأما في الحقيقة فإن (عاصي) أو (آسي) يأتي من أكسيوس الاسم الذي أعطاه اياه المكدونيون تسميته بالنهر المعروف عندهم «تذكرة» (أ.هـ. قول مسبرو).

وذكر أوميروس في إلياذته العربية صفحة ٨٢٩ و٩٩١ أن أكسيُّوس Axius متوازن نهر في مكدونيا ويسمَّى الآن دسْتِرته كانوا يعبدونهُ. وسمى الافرنج نهر جيحون (أكسوس Oxus) نقلاً عن الاسم اليوناني وهو مشهور في العراق.

وأنشد أبو القاسم جارالله الزمخشري أبا الحسن العمراني وهو ينادله الجَمَد المدقوق فيشربه فقيل له إنه يضرهُ فقال:

ألا أن فـي قـلـبـي جـوىً لا يـبـلّـهُ (قويق)[1] ولا (العاصي) ولا (البَرَدانُ)[2]

والبَرَدان نهر بثغر طرسوس مجيئه من بلاد الروم ويصب في البحر على ستة أميال من طرسوس وليس غيره في الشام بهذا الاسم وقويق نهر بحلب والعاصي في شمالي سوريا حتى أنطاكية.

وقال شيخ الربوة في كتابه «نخبة الدهر» صفحة ١٠٧ ما نصُه: «ثم نهر العاصي.

---

(١) قويق نهر في مدينة حلب، مخرجه من قرية تدعى سبتات. وقد أحسن القيسراني محمد بن صغير في وصفه بقوله:

رأيـت نـهـر قـويـق فسـاءنـي ما رأيـت
فلـو ظمـئت وأسقـي ت مـاءه ما رويت
ولـو بكـيـت عـلـيه بقـدره ما اشتفيـت.

وقال آخر:

إذا ما الضـفادع نـاديـنـه قويـقٌ قويق أبى أن يجيبا
تغوص البعوضة في قعره وتأبـى قوائمها أن تغـيـبا.

راجع معجم البلدان ٤ / ٤١٧ (المحقّق).

(٢) أنهار ببلاد الشام والبردان عين بأعلى نخلة الشامية. معجم البلدان ١/ ٣٧٥-٣٧٦.

ويسمّى الأرنط ومنبعه من أرض قرية الرأس من عمل بعلبك وذكر أن منبعه من قرية اللبوة ثم من شقيف يعرف بقائم الهرمل ومنه عمودهُ ثم يمرّ ويعمل بحيرة صغيرة ويخرج منها ويمرّ بحمص ثم بحماة ثم بشيزر وبعمّورية ويمتد بين جبال حتى يصل إلى سويدية ويعمل هناك بحيرة أكبر من بحيرة حمص ثم يصب في البحر الرومي». (أ. هـ).

وقال أيضاً في صفحة ٢٠٦/٢٠٧: «حماة... يحوطها العاصي ويأتيها جارياً من بين جانبيها ويجمع بين الجانبين قنطرة وعلى العاصي النواعير الكبار والتي لم يُرَ في الآفاق مثلهن يحملن من العاصي أنهاراً من الماء يسقون به البساتين والأماكن... وسلمية وهي على سيف البرية بناها عبد الله بن صالح وعلي بن عبد الله بن عباس (رض) ولها قناة كبيرة تحمل من سلمية إلى حماة تسقي بساتينها وأراضيها وهو نهر مليح. ونهر العاصي فيما بين حماة والرستن يسمّى النهر الأرنط. ونهر العاصي منبعث من قرية تسمّى اللبوة من بلد بعلبك من قرية تسمى الرأس أيضاً من قرى بعلبك ويجري إلى جهة حمص وينضم إليه ينبوع غزير يسمَّى (عين الهرمل) عليه مرصد من مراصد الصابئة يشبه المرصدين اللذين بحمص تسمَّى [تسميان] المغزلين. وهذا المغزل يسمَّى قائم الهرمل ثم يمتد جارياً إلى تحت حصن الأكراد وماؤهُ صافٍ كالدموع إلى أن يدخل بحيرة حمص، وهي بقعة محقولة ببناء جص محكم وفيها أسماك كثيرة كبار ثم يخرج منها الماء عكر مثل ماء النيل ولا يصفو بعد ذلك إلى أن يدخل أرض الروم ويصل إلى سويدية ويصب في البحر الرومي كما تقدم» (آ. هـ).

ينابيع العاصي

يفصل سهل بعلبك الواسع لبنان الغربي عن الشرقي. ذلك السهل يمتد منحدراً من سفوح لبنان الشرقية العظيمة إلى أطراف لبنان الغربي. ففي نهاية ذلك السهل الواسع وادٍ عميق تجري فيهِ مياهُ اللبوة نحو ثلاث ساعات حيث تصل إلى ينابيع العاصي المشهورة.

في ذلك الوادي العميق الفاصل بين أطراف سهل بعلبك ولبنان الغربي تنبجس ينابيع العاصي الجميلة من الجهة الشرقية (لا من لبنان الغربي) ولها مصدران كبيران العين الزرقاء والدفاش.

تصب مياه العين الزرقاء – وهي ينابيع عديدة – في بركة واسعة تظللها أشجار الدلب الكبيرة فتزيد في بهاء منظر البركة العميقة. وسميت بهذا الاسم زرقاء لصفاء مائها ولونهِ الأزرق الذي يحاكي مياه البحر. ويمكن للإنسان أن يقعد هناك بين ينبوعين كبيرين وأمامه عشرات الينابيع تتفجر من بين تلك الصخور وتجري نحو أربعين متراً إلى حيث تصب فيها مياه اللبوة، وتجريان معاً منفصلتين: مياه الزرقاء الصافية النقية ومياهُ اللبوة العكرة، مما يخالطها من التراب. وبعد سيرهما على هذه الصورة نحو مئة متر يلتقيان إلى الشمال في ذلك الوادي بين شاهقين من الصخور قائمين وبعد نحو مئة متر أخرى، تصب فيها ينابيع الدفاش المشهورة وهي ثلاثة ينابيع أكبرها أوسطها، وهو يصبّ بغزارة مما يعادل عشر جرات إلى عشرين جرة في الثانية حسب قوة ورود الماء السنوي والماء هناك بارد كالثلج.

ويصعب الوصول إلى منبع العاصي – الدفاش – فإنه يتدفق من مكان قائم لا يقدر أحد أن يصل إليه إلاَّ على ظهور البغال. وإذا خضت الماء البارد رأيت ينبوعاً صغيراً ينبع من لبنان الغربي بين مياه اللبوة والدفاش. أما بقية الينابيع، فتتفجر من الجهة الشرقية لذلك الوادي فمخازنها الطبيعية إذاً تجري من لبنان الشرقي تحت ذلك السهل الواسع إلى وادي العاصي.

هناك الأشجار قليلة. فعلى عين الزرقاء ثلاث أشجار دلب كبيرة يتظلل بظلها المسافرون. ولكنك تجد بعد ذلك كثيراً من الأشجار المتنوعة على الجانبين. والسمك هناك قليل، لكنك تجدهُ حتى في بركة عين الزرقاء، والطيور البرية هناك قليلة أيضاً. وترى هناك أفراداً أو جماعات من الشيعيين مدججين بالسلاح الكامل. حتى رعاة الغنم – والراعي مشهور بحب السلام – [مسلحون] ومستعدون لدفع الطوارئ.

هناك منبع العاصي الذي قال فيه المرحوم الدكتور بوست: «أعطني العاصي وواديه والأردن وجانبيه وأنا أضمن لك أنهُ لا يجوع ولا يعرى أحد في سورية». وهو قول يدلك على مصادر غنى سورية وثروتها.

أسفاً على هذا الوادي الجميل أن يكون مهملاً فيتمتع به رعاة المواعز وقطاع الطريق والجهلة ويُحرم منهُ كتبة البلاد وشعراؤها والمصطافون.

حبذا لو انتشر الأمن في تلك الجهات، وأصلحت الطرق، فتمَّت المواصلات بينها

بسهولة واهتمت بلدية الهرمل وأهلها لفتح طريق للسيارات بين محطة سكة الحديد والينبوع، وبنت هناك نزلاً للمسافرين، حيث يجدون كل وسائل المعيشة والراحة، وفتحت طريقاً عند منبع الدفاش، وغرست الأشجار، لجعلت تلك البقعة من أحسن جنات الأرض، فيؤمّها السياح والقصّاد، فتعود عليهم بالخير والبركات، وعلى المصطافين بالصحة والسرور، وأخصهم الحمصيين والحمويين الذين يفتخرون بعاصيهم الجميل.

ولقد صوَّرت تلك الأماكن صوراً شمسية أهمها منظر عين الزرقاء من الجبل مقابلها، والدفاش من الضفة الثانية، وقدَّمتها للسادة صرافيان اخوان في بيروت ليطبعوها ويعرضوها للبيع.

النشرة الأسبوعية بيروت ٧ كانون الأول ١٩٢٢ (سائح سوري).

الينابيع الدورية وأسرار الطبيعة

إن للطبيعة أسراراً، ولهذا الكون ألغازاً يظنها بعض الناس إلهية أو من المعجزات النبوية، والحقيقة عند أهل العلم، إنما هي سير الطبيعة على نظامها المسنون لها منذ الأزل، فلن تتعداه كما تعدَّى الإنسان حدوده في كثير من أعماله وأقواله. ومن درس شؤون المياه وتكوّنها من الثلوج والأمطار وانحصارها في أحواض طبيعية تحت سطح الأرض وارتفاعها وانخفاضها وزيادتها ونقصانها، وعرف نواميس الطبيعة التي تسير عليها بدون أقل انحراف، حكم أن تلك المعجزات ليست إلاَّ مظاهر تلك النواميس ونتائج تلك القوانين.

ومن ذلك، ما نشرته جريدة «زحلة الفتاة» في عددها الأسبق عن ينبوعين قرب قرية طلية إلى جنوبي مدينة بعلبك يجفان سبع سنوات ثم يفيضان سبعاً تالية. وهناك كثير من هذه الينابيع الدورية ولا سيّما في لبنان فمنها ينبوع نهر أنطلياس قرب بيروت وينبوع عرمتى في جزين وينبوع اليمُّونة في بلاد بعلبك وينبوع عنجر في البقاع ثم هذان الينبوعان في بلاد بعلبك.

فالسبب في تكوين هذه الينابيع الدورية التي تجف مدة ولو في الشتاء وتتفجر في الصيف، أن للمياه مجاري تحت سطح الأرض على هيئة ممص أي صاعدةً مسافة ثم

منحدرة مسافة أطول من الصعود فلذلك كان الماء المتجمع في الأحواض الطبيعية تحت الأرض، وهي ليست بقليلة العدد ومعظمه من المطر والثلوج الذائبة يرتفع مدة ثم يجزر.

ذلك لأن الماء لا يجري من طرفه الأسفل حتى يمتلئ إلى أعلى نقطة في صعوده فيجري بعد ذلك في المنحدر حتى تفرغ المياه جميعها فيظهر مدة ولما يفرغ تكون فترة بين ذلك التفريغ وبين امتلائه ثانية وتلك الفترة هي زمن الجزر فكانت بعض الينابيع التي هي من هذا النوع تفيض مرةً ثم تغيض أخرى.

وقد يكون سبب ذلك الفيضان والنضوب من ضغط بعض الغازات عَلَى سطح الماء المتجمع تحت وجه الأرض. فيجتمع الماء في الحوض حتى يبلغ ضغط الغاز ما يكفي لدفعه من المجرى فيفيض ثم يخف الضغط فيقف الفيضان.

هذا هو سرّ الطبيعة بينابيعها الدورية قد خفي القليل عنه إلاّ عَلَى الدارسين الجغرافية الطبيعية ومبادئ الطبيعيات، فلا عجب إذا نسبوا بعضهم[1] ذلك التغيُّر الذي يؤثر بحواسهم إلى الإعجاز والتأله، ولكن العلم الصحيح يكشف تلك الغوامض بالبراهين المعقولة، فيزيل ما يعلق بالذهن من الاستغراب وتنجلي الحقيقة للبصيرة.

ولله في خلقه شؤون، سبحانه من مبدع حكيم ومهندس عظيم.

(نهر العاصي) وينابيعه وما ينصب إليه

نبع الساخنة: إن ينبوع الساخنة هو إلى الشرق الجنوبي من القصير على بعد ساعة وهو سخن والبخار (الهَبَلة) تخرج منه، ينبجس من منحدر جبل [و] بعد ثمانية أمتار من مجراه تبرد مياهه. ولما تصل إلى قرية القصير يقطعها أهلها عن حمص والساقية المجرورة بها المياه قديمة بديعة الهندسة مغطاة تحت الأرض بمثل السمانت[2] وحجر وعلوها نحو متر ونصف وعرضها نحو سبعين سنتيمتراً. على بعد نحو مائتي متر فيها فتحة على مسافة ساعة

(١) هكذا وردت في الأصل، والصواب: فلا عجب إذا نسب بعضهم (المحقّق).

(٢) الإسمنت.

نحو عشرة كيلومترات (يقدر الكيلو متر بربع ساعة مثل الميل تقريباً). وعلى بعد نحو سبعة أمتار وعشرة وعشرين وما بعد توجد مغاور بالحجر كثيرة يسكنها الرعاة.

وقرب نبع الساخنة أطلال قرية تسمَّى خربة الأكراد الذين رحلوا إلى هنا، ومنذ نحو عشر سنوات تركها الأكراد إلى بلادهم فخربت. فلما خربت، صار أهل القصير يستخرجون الحجارة منها وذلك يدل على قدمها وهناك درج وعَدَسة (أي رصيف) وإلى غربي القصير (العاصي) يسير من هناك بعرض متوسط ويجري العاصي قرب (ربلة) ومنها يسير. ثم ينصب إليه (نبع الساخنة) المذكور وهو شعبتان الواحدة في القصير والثانية في الزراعة. فيجري إلى ربلة ثم إلى العاصي.

نبع الساخنة أو ساقيته تنفع القصير والزراعة ثم ربلة إلى أن تصب في العاصي حيث تتصل مياههُ ببحيرة قطينة.

وعندما يصب نبع الساخنة بين ربلة والزراعة هناك جسر الحارون المشهور القديم وهو طريق عام وعنده بضعة عيون صغيرة تنصبّ في النهر والقصير والزراعة وربلة وجوسية كلها من قضاء حمص.

وكانت عدوتا نهر العاصي مخيماً لكثير من الغزاة والفاتحين والمحاربين منذ أيام المصريين وما قبلهم والمسلمين والصليبيين والدول الأخرى وكثيراً... [ما حجز] بين المحاربين نهر العاصي[1].

العاصي: ولقد ورّى[2] كثير من الشعراء بنهر العاصي فقال علاء الدين بن غانم:

حـمـاة فـي بـهـجـتـهـا جـنـة ... وهـي مـن الـغـم لـنـا جُـنَّـة

لا تـيـأسـوا مـن رحـمـة الـلـه قد ... أبـصـرتـم الـعـاصـي فـي الجنة

وقال ابن خطيب داريّا:

(١) الكلمة غير مقروءة، وقد تكون كلمة بمعنى حجز بين أو حال دون الاشتباك والقتال (المحقق).

(٢) ورّى التي استعملها المؤلف هنا معناها أظهر الشيء، والأصل ورى الزند، أي قدحه، فأشعل ناره، كما تأتي بمعنى أخفاه أو أراده وأظهر غيره. راجع: المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، (د. ن)، ١٩٩٤، ص ٦٦٦ (المحقّق).

جزيرة حمص كعبة الحُسن أصبحت | يطوف بها داني ويسعى لها قاصي
لها حلة من نبتها سندسية | تعلق في أذيال أستارها العاصي

وعيب على ابن خطيب داريّا هذا في ذلك حيث قيل في الرد عليه:

جزيرة حمص لم تكن قط كعبة | يطوف بها داني ويسعى لها قاصي
ولكنها للهو والقصف حانة | ألم تنظروها كيف جاورها العاصي

وقال أبو جعفر الالبيري رفيق ابن جابر الأعمى وشارح بديعيته لما جاء المشرق وقد دخل حمص:

حمص لمن أضحى بها جنة | يدنو لديها الأمل القاصي
حل بها العاصي ألا فاعجبوا | من جنة حل بها العاصي

(تسمية بلعاس والعاصي) من رأي الأستاذ صديقي المرحوم جبر ضومط عندما زارني مراراً في زحلة منها في ١٣ آب ١٩٢٨ ووقف على هذا التاريخ وأعجب به قال لي: إنه يوجد شرقي العاصي إلى انطاكية جبل (بلعاس) فهو يحلله إلى (بيل عاس) أو (بيل قاس) أي بعل الحثيين. وقرب السلط في فلسطين بلدة (بلعاس)[1] لعلها من هذا لذلك سموا النهر باسم (عاسي) أي (الحثي) وهو توجيه لطيف.

الأورونط: من كلمة أرانتِس أي نهر الآراميين.

وقال الشاعر عمر الحلبي الكناني المشهور بالمجّار في ديوانه المخطوط بمكتبة المجلس البلدي في الاسكندرية من قصيدة طويلة بليغة في وصف حماة يذكر نهر (الارنط) العاصي ومنتزهات حماة:

وأشتاق من شاقة منظراً | ومنظرة حُسنها زانها
إذا ما أتى حولها حَورُها | ومال فتحسبه بانها
وغازلها الزهر عن أعين | من الريّ تكسر أجفانها
و(نهر الأرنط) اذا ما سقت | نواعيرها منه غيطانها

(١) معجم البلدان ١/ ٤٨٥.

وهبت عليها نسيم الصبا | وباتت تلاعب أغصانها
وقامت حماماتها في الغصون | سحيراً ترجع ألحانها
فتحسبها لاختلاف اللغات | قياناً تحرّك عيدانها

«المجر»: من نبع اللبوة إلى رأس بعلبك، وهناك سبعة ينابيع (منها عين الساخنة) تجتمع وتجري من اللبوة بأراضيها في وادٍ على (البجّاجة وجبّولى والعين والفيكة) وفي أراضي رأس بعلبك، وقسم يسير إلى القاع، وهو الذي أخذه سليمان الحكيم إلى تدمر.

ربما عين الجوز المذكورة في تاريخ الواقدي عن فتوح الشام، هي الهرمل لكثرة الجوز حول عينها، وفيها نبع يسمى نبع رأس المال. وتوجد قرية (عين الجوز) قرب طفيلة في القلمون. (وعين الجوز) قرب بعلبك، ودير عين الجوزة بالبقاع.

فوائد عن بعلبك أيار سنة ١٩٣٠

نبع اللبوة جُرَّ إلى تدمر بزمن سليمان الحكيم، وقناتيه مارة تحت رأس بعلبك. يقال إن زوجته قالت له (لسليمان): أريد الماء من اللبوة (في بلاد بعلبك) والربوة (قرب دمشق) فجرّت إليه منهما.

عين الزرقاء قبلي القاموع (مسلة الهرمل) أو (قائم الهرمل)، وتحت دير مار مارون [نبع] يخرج من مغارة تسمى مغارة الراهب.

دير مار مارون في صخر وبشعب ضيق، يفضي إليه كل الدير نقر بصخرٍ غرفاً غرفاً، وأول محل تدخل إليه فسحة دار نحو ٣٠ ذراعاً، طول بعرض نحو ١٥ ذراعاً، فتنظر باباً بدرجات، وهناك كنيسة كبرها نحو كبر الدار المذكورة بجمالون من داخل أي مقبّبة. ثم ترى في هذا الدير بئراً يُقال إنه يوصل إلى العاصي، وهو مرتفع عنه جداً. ثم إلى الشمال درجات يصعد منها إلى غرفة تشرف على العاصي، ولها نوافذ، وقبالتها وحولها غرف.

و إلى جنوبي الهرمل وغربي الرأس الشمالي، هناك يمر نهر اللبوة ويتصل بالعاصي.

وعين الزرقاء مركبة من ينابيع كثيرة، ومنها إلى الغرب (قاطع نهر المجرّ) عين الكدّابة

لأنها تنشف مراراً. وتحت الهرمل مزرعة الشواغير، تخصها على كتف الوادي. وتحت الشواغير سد إلى جوسية الخراب تسمى قناة البيضا.

حدود بعلبك ساقية جوسية العمار، فجوسية الخراب من أرض بعلبك الآن.

كانت جوسية والراس نصارى، فاختلفوا واستفحل بينهم الخلاف، حتى إنهم تقاتلوا قتالاً عظيماً، فخربت البلدتان، ولكن الراس عادت، فعمّرت، وجوسية بقيت خراباً، فعمّرت بعد ذلك جوسية العمار فقط.

(المجرّ)

والمجرّ سِكْر (قناة ماء) من رأس ماء اللبوة، ينصب إلى العاصي بين الراس والهرمل، وحوله أراضٍ تفلح وتزرع. و(المجر الأصلي) من حدود ما بين السعيدة وحوش بَرَدَى وبُوْدَيَه بخندق يزيد ويتصل بأراضي (العلّاق أو العلّيق) (بتل الخيرية) ويتصل إلى رجل الحرف أرض ديرالأحمر وبأرض الكنيسة وشعث وحربتا واللبوة. ومنها ينصب إلى العاصي بين الراس والهرمل.

وكله [يتدفق خلال الفصل] الشتوي إلاّ من اللبوة إلى رأس العاصي [فهو] صيفي وشتوي.

وقبل اللبوة عيون من أواخر أرض شَعث إلى أواخر أرض حَرْبَتَا، ثم يتصل بمياه اللبوة، وهي من المجرّ أيضاً، فأول المجرّ يكون من شَعَث إلى رأس العاصي (نسبة إلى جرّ المياه فيه).

(أرض ربلة) تسمى الآن (العَسْرة) لعطل مناخها، نقلوها إلى شرقي ربلة القديمة وفيها آثار قديمة. وفي الجديدة نصارى، والقديمة فوق العاصي تحت الهرمل بيوت قليلة مسكونة موارنة.

(انتبه) إلى جنوبي الهرمل وغربي الرأس الشمالي، هناك يمر نهر اللبوة ويتصل بالعاصي.

وعين الزرقاء مركبة من ينابيع كثيرة، ومنها إلى الغرب (قاطع نهر المجرّ) عين الكدّابة لأنها تنشف مراراً. وتحت الهرمل مزرعة الشواغير، تخصها على كتف الوادي. وتحت الشواغير سد إلى جوسية الخراب تسمى قناة البيضا.

حدود بعلبك ساقية جوسية العمار، فجوسية الخراب من أرض بعلبك الآن.

نهر الغزيّر: هو مجموع ينابيع كثيرة من قرية عنجر حول تلة صغيرة تسمى جُبيلة عين البيضا فمن هناك في سفحها يخرج نبع عين البيضا ويصب في الغزيّر، ثم بركة عنجر الدورية ثم نهر الحُسين ونهر يقطين ونبع شمسين إلى شمالي البركة ثم نهر الفاعور الذي يخرج من قرب تربل ويمر قرب كفر زبد ويصب في الغزيّر. فمجموع هذه الينابيع والجداول تكوِّن نهراً سمِّي الغزيّر لغزارة مياهه وعليه جسر ديرزينون قرب بر إلياس. وسمّي هذا النهر قديماً نهر مرسياس أو مرسيا باسم البقاع القديم ذكره بلين وسترابون وغيرهما وهو يصب في الليطاني.

بركة عين العمود[1]: قرب حوش السنيد (عين العامود)[2] وهي بركة صغيرة في أرضها تجف سبع سنوات وتزرع أرضها ثم تفيض خمس سنوات فلا تزرع فهي من الينابيع الدورية.

جدول الخريزات: ينبوع الخريزات تحت خربة قنافار ينبجس من محلين على بعد بضعة أمتار. وهو أشبه بنهر صغير تسقى به الأراضي وتدار به الطواحين والباقي يتصل بالليطاني. وفي خربة قنافار ينبوعان للشرب غير الخريزات أحدهما يسمى (نبع العافية) في الأعلى وتحت البلد ينبوع ثانٍ.

نهر جَلالَا: هو جدول شتائي تجري فيه مسايل جبل الكنيسة وصنين على مقربة من جديتا (ومن ينابيعه) قال شيخ الربوة في نخبته صفحة ١٩٩: وبقاع بعلبك وفيه موضع يفور منه الماء فوراً بالقرب من كرك نوح يسمّى (تنورالطوفان) وبالقرب منه شجرة دلب عظيمة الساق والفروع قلّ أن يرى في شجر دلب مثلها.

ومن ينابيع هذه البقعة الدوريَّة: (بركة عنجر) وهي مربعة بعرض مائة وخمسين ذراعاً [تفيض] في كل أسبوع أو كل يوم أو كل شهر مراراً وتصير ضعف الأصل عند فيضانها ثم تجفّ وهي شبه سدّ في سفح الجبل الشرقي مقابل معلقة زحلة وشرقيها إلى الجنوب وحجارة سدها ضخمة مبعثرة زرتها في ٢ أيار سنة ١٩٢٩ وتحتها طاحون قديمة كبيرة

---

(١) الاسم غير واضح في الأصل، وتم استخلاصه من النص اللاحق (المحقّق).

(٢) العمود.

تخص جفتلك درويش باشا وبعضها لوقف دمشق وقربها مزرعة عنجر الحديثة خرّبها ملحم قاسم البريتاني في الحرب العامة لتعديه على سكانها.

نبع الأربعين: شرى[1] وصفه في بحيرة اليمُّونة.

نبع المَوْرج: إلى غربي حدث بعلبك على بعد ساعة وربع في صحراء حوله أرض (الكريمات) وهي شعب للزرع وينشف في الشتاء ويظهر عند الدياسة [الدراسة]، فسمي بالمورج ويبقى إلى التشارين فيجفّ. وينتفع بمائه القليل بعض المزارع حوله، ويجلب من مياهه إلى أراضي الحدث وطارية وكفردان وجبعة.

[البحـــيرات]

البحيرات تكثر الرواسب فيها كلما مرّت عليها السنون فتصير أرضها على مساحة مخرجها، وتتحول إلى سهل خصيب كسهل البقاع وغيره من السهول التي كانت بحيرات في ما مضى من العصور. ويقال في البُرك ما يقال في البحيرات.

وألقى الأستاذ ألفرد ألي داي مدرِّس علمي الجيولوجية والنبات في الجامعة الاميركية في بيروت محاضرة يوم الجمعة في ١٦ أيار ١٩٢٤ عن البعثة الأثرية الاميركية التي رأسها الدكتور البريت Albrigt في جهات بحر الميت في فلسطين قال فيه: « إن سهل البقاع كان مركز البحيرة الكبرى التي جفت مياهها منذ عهد بعيد يؤيد ذلك وجود الأصداف المتحجرة في أكثر المواضع في السهل المذكور». النشرة الأسبوعية تاريخ ٢٩ أيار ١٩٢٤ ص ٣٤٦ (عدد ١٩٢٤ سنة ٥٥).

(بحيرة اليمُّونة)

بحيرة اليمونة: في الجانب الغربي من قضاء بعلبك غزيرة المياه عذبتها لو استعملت تروي أرضاً تبلغ مساحتها أربعين ألف دونم جيدة التربة. وأعشار الأرض التي تسقيها تبلغ

(١) هكذا في الأصل والصواب جرى (المحقق).

ألفي ليرة فبعد وصول المياه إليها تبلغ خمسة آلاف ليرة فالزيادة ثلاثة آلاف ليرة يكون للأهلين منها ثلاثون ألف ليرة سنوياً [من] مياهها. ولقد فكر بجر مياهها أولاً الياس فارس المعلوف من شليفة فسعى مع شركة جر مياه نهر الكلب الإنكليزية بذلك نحو سنة ١٨٩٢م، ثم أهمل أمرها وسنة ١٩١٠م فكر بذلك فريد بك يوسف الهراوي من بعلبك. وحضر مهندسون لدرس المسألتين وأهمل أمر جر مياه البحيرة. مع أن قلة المطر في بعض سنوات تقضي بأن تسقى الأراضي بالبحيرة لأن الجدب يستولي على الأرض. و(البحيرة المذكورة) واقعة في منعطف جبل المنيطرة الشرقي في الشمال الغربي من سهل بعلبك، واسم اليمونة سرياني بمعنى بحيرة وهو تصغير اليمّ. وطولها يختلف بين ثلاثة كيلومترات وأربعة وعرضها يبلغ نحواً من ألف وثمانمائة متر يصب فيها ينبوع يسمّى نبع الأربعين شهيداً (لأنهُ تظهر مياهه يوم عيد الأربعين شهيداً في آذار) كل سنة، وهو من الينابيع الدورية التي تغيض مرة وتفيض أخرى وقد بُني سد ارتفعت به المياه إلى علوّ نحو خمسٍ وعشرين ذراعاً بناه المعلم جرجس الشويري نحو سنة ١٨٨٧م وجُرّت [مياهه] إلى أراضي قرية اليمونة التي هي أعلى منه وارتفاعها عن سطح البحر ١٥٤٠ متراً، ولهذه البحيرة منفذ في وسطها يسمّى (البالوع) ومنه تظهر في مغارة أفقه (كسروان وأفقه سريانية بمعنى مخرج) وتتدفق من مغارة تعلو نحو سبعة مائة متر فتجري في نهر إبراهيم الذي يصب في بحر الروم (البحر المتوسط).

ومن غريب أمر بحيرة اليمونة أن مياهها سواء بقيت في البحيرة أو جرت إلى أفقه لا يُنتفع بها. وتنضب مياه البحيرة عندما تذوب الثلوج في القمم ولا يبقى لها أثر. وتعود عندما تعلو الثلوج وتجري إلى خزانها أو حوضها الخاص فتجري عند أمتلائها بمنفذ هو أشبه بالممصّ الذي تفرَّغ فيه السوائل من وعاء إلى آخر وهو على شكل قوس فمتى ملأت المياه ذلك الحوض وصار سطحه موازياً لنقطة اجتماع منعطف القوس اندفقت المياه سيلاً إلى أن تهبط إلى سطح تحت تلك النقطة فتغيض أي ينقطع جريها فتأخذ فترات طوراً منظمة وآونة غير منتظمة، وزمن فيضانها يكون غالباً في الربيع لما تملأ السيول والثلوج نخاريب الصخور فترشح المياه إليها أوشالاً. وهذه البحيرة محاطة بصخور كثيرة ولا سيّما في غربها وفي وسطها أرضية كثيرة، وفيها سمك لذيذ الطعم يصطادهُ الأهلون ولا يكاد يكبر لكثرة

اصطياده بالشباك والسنانير ولها منافذ كثيرة تجري إلى أفقه وعرف ذلك من طرح العصافة (التبن) في مياهها فظهرت في أفقه والله أعلم؟

على أن بحيرة اليمُّونة (وهي لفظة سريانية مصغرة) بمعنى البحيرة و(اليمّ) البحر و(الواو والنون) -(هما للتصغير بالسريانية)- [يمكن لها] أن تسقي نحو مائة ألف دونم من الأرض التي تحتها في سهل بعلبك الفسيح، وموقعها في سفح جبل المنيطرة تعلو عن سطح البحر نحو ١٤٠٠ متر وعن السهول المحدقة بها نحو ٣٠٠ متر بطول نحو ٥٠٠ متر وعرض معدله ٣٠٠ متر وعمقها من ثلاثة إلى أربعة أمتار يصب فيها ينابيع كثيرة أعظمها نبع الأربعين الذي يفيض في شهر آذار فنسب إلى عيد الأربعين شهيداً الواقع في ٩ آذار لأنه تفيض مياهه في هذا الشهر قرب هذا العيد ويجف في أواخر تموز وفي وسط البحيرة دردور (بالوعة) تتسرب فيها المياه تحت الأرض واختلف في ظهورها فقيل إنها تنفذ إلى نبع أفقه (سريانية) بمعنى المخرج قرب العاقورة بينها وبين قرطبا (سريانية بمعنى البرد الطيّب) حيث منبع نهر أدونيس أو تموز المعروف بنهر إبراهيم نسبة إلى أحد المردة المسمى إبراهيم.

وقيل إنها تنفذ في (نبع العلاَّق أو العلَّيق) بين السعيّدة وحزّين حيث هناك تظهر مياه على شكل بحيرة تستقي منها القرى القريبة منها مثل شليفة والسعيدة وغيرها وربما كانت من منابع نهر الليطاني (نسبة إلى الروتان أو اللودان) الشعب القديم وهو منسوب إلى لود أخي آرام بن نوح فحرِّف بلغة المصريين إلى (روت) وهو الذي يسميه المصريون (الروتنّو) وهناك قرية بريتان كما في غربي دمشق قرية بلودان نسبة إلى لود بلغة الآراميين والإبدال بين اللام والراء والدال والتاء شائع على الألسنة.

قلنا إن اليمونة واقعة في سفح جبل لبنان الغربي بين جبلين الشرقي منهما رابية واختها تحجبها عن سهل بعلبك وقد امتدت إليها الآن طريق السيارات. وهناك آثار سد روماني تهدم وفيها آثار قديمة من معابد للزهرة وقلعة متهدمة. وقد بُني سد للنبع يرفع مياهه إلى علو ليسقي أراضي قرية اليمونة بيد البنَّاء جرجس أبو فرح[1] من الشوير نحو سنة ١٨٨٧م فانهدم

(١) ورد اسمه قبلًا جرجس الشويري نسبة إلى بلدة الشوير في جبل لبنان، بينما هنا باسم جرجس أبو فرح، والأرجح أنهما الشخص نفسه، ففي الأولى تمت نسبته إلى بلدته أي ظهور الشوير (الشويري)، وفي الثانية وضع المؤلف اسمه العائلي الفعلي (أبو فرح)، (المحقّق).

أول مرة ثم أعيد بناؤه وأخذ بانيه نصف الأراضي التي تسقيها المياه ثم عصاه الفلاحون فترك البلاد إلى أميركة.

وسنة ١٨٩١م اشتغل المرحوم إلياس فارس شبلي المعلوف من شليفة (بلاد بعلبك) مع شركة مياه نهر الكلب في الضبية التي تجر المياه إلى بيروت وتوزعها على أحيائها، وكنت أنا الترجمان بينه وبين مدير الشركة الإنكليزية لما كنت محرراً لجريدة لبنان في بعبدا (لبنان) فألفت لجنة لفحص المياه وجرها ووضعت تقريراً بذلك، فلما علم بعض الملاكين أصحاب المطاحن، وقفوا في وجه المشروع ولم يُنفّذ خوفاً على مطاحنهم مع أن أرضهم تزداد غلاتها أضعاف الأضعاف مما ينتج في المطاحن.

ومياه البحيرة نحو ٤٠ سُكراً ينفجر نصفها من نبع الأربعين والباقي من عشرة ينابيع تتدفق من جوانب البحيرة وتنصب فيها ومساحتها نحو ألف دونم أرض وفيها سمك لذيذ صغير يؤكل بحسكه. وعلو سد اليمونة عشرون متراً يعطي ٣/ ٤ المتر المكعب من الماء في الثانية.

وقبل الحرب نحو سنة ١٩١٢م على إثر لجنة تألفت في بعلبك سنة ١٩٠٧ لهذه الغاية وفشلت، قام كل من مصطفى بك حيدر الشيعي من بعلبك وفريد بك الهراوي من سكانها، فطلبا امتيازاً لجر المياه وسقي الأراضي في قرى دير الأحمر وبتدعي وشليفة وبوديه والسعيدة وكفردان وبعض أرض الحدث وأراضيها مساحتها نحو ٦٠ ألف دونم، وذلك بحفر نفق يخرق الجبل بطول نحو ١٨٠٠ متر فيمتلك صاحبا الامتياز أرض البحيرة التي يجففانها ويأخذان من أصحاب الأرض بدل تمليك حق الشرب. ويمكن إيجاد شلال علوه (١٥٠) متراً تتولد منه كهرباء [تصل طاقتها] حتى إلى حلب وكادا ينالان الامتياز لولا نشوب الحرب الكبرى. وقدر أن المياه تسقي ٦٠ ألف دونم. وأرض البحيرة بعد تجفيفها تكون قيمتها نحو عشرة آلاف ليرة ذهباً. ويمكن أخذ ليرة ذهبية عن كل دونم أرض يسقى بتلك المياه، فتصير قيمة دونم الأرض بعد وصول المياه إليها من ثلاث ليرات إلى عشر ليرات ذهباً.

في خريف سنة ١٩٢٧ وضع وزير النافعة في لبنان تقريراً عن هذه البحيرة واستثمار الأرض التي تسقيها ووعد المفوض السامي الفرنسي بإعطاء حكومة لبنان ستمائة ألف ليرة ذهبية من حصة لبنان من رسوم المكس (الكمرك) المتأخرة لتصرف فيها بناء على هذه الشروط:

١- ريّ نحو مائة ألف دونم من سهل بعلبك.

٢- تجفيف حوض اليمونة ومساحته نحو خمسمائة دونم.

٣- توليد [الطّاقة] الكهربائية من شلالات اليمونة لتنوير بعلبك وما يجاورها.

٤- إدارة مطاحن كثيرة بمياه النبع.

ثم وقف المشروع لأسباب كثيرة من المعاكسات والمعارضات وقلة المال وفقر الأهلين الذين توزع عليهم الأموال.

ثم تألفت شركة نحو سنة ١٩٣٣م وشرعت في حفر نفق في الجبل المعترض دون السهل بعد نيلها امتيازاً.

وفي أيلول أو أواخر آب سنة ١٩٣٦ فرغ النقّابون من نقب النفق واتصل بعضه ببعض لجر المياه إلى سقي الأرض وأخذوا في إكمال العمل[١].

(نبع الفالُوج) بين أرض عيثا الفخار وأرض البيرة يسمّى (عين التنُّوري) لأنه فوّار وهو ليس بمهم بالشتاء وينزل في وادي (أبي عُبَيْد) في أرض كامد اللوز. وهو على طريق راشيا الوادي في وادٍ عميق كان مكمناً للثوار، ففي شباط ١٩٢٦ قتل كمينه نحو ٥٢ جندياً من المتطوعين والفرنسيين منهم رجلان من زحلة وجرح واحد منها كانا يسوقان (خويلن) على عجلات (طنابر) لنقل أمتعة العسكر.

وفي أواسط حزيران سنة ١٩٢٦ صارت موقعة بين كمين الفالوج والقناصة اللبنانية قتل فيها فارس أبو ملهب من بمهريه وكان شجاعاً.

وفي يوم الخميس في ٢٤ حزيران سنة ١٩٢٦ حدثت موقعة ثالثة فيه بقيادة شكيب وهاب رئيس الثوار وبقيت إلى يوم الجمعة.

---

(١) زحلة في ٦ حزيران سنة ١٩٢٠، عيسى اسكندر المعلوف.

الينابيع الدورية

(عين تربل) في البقاع تخف بضع سنوات ثم تعلو بعد ذلك وتفيض فيسقون أرضهم منها ويزرعون الذرة بالنسبة لكثرة الأمطار.

(نبع وادي بُرْكَيْه) على طريق قوسايا وبأرضها يظهر [في] الربيع ويغيض بآخر الحصاد (الحقلة) في تموز. وهو غزير المياه تنتهي مياهه إلى أرض حشمش في الجبيله.

بحيرة قادس

على بعد خمسة كيلومترات من حمص وفي الجهة الغربية منها يشاهد من يزور حمص في القطار بحيرة عظيمة من أعظم البحيرات في سوريا هي بحيرة (قادس) الرومانية ذات السد التاريخي العظيم الذي يرجع عهده إلى زمن الرومان وهو الحاجز لما يجتمع من مياه العاصي والعيون المتفجرة فيقوم إذن مقام سد حديث بني على الطراز الحديث فكلما كثرت المياه في هذه البحيرة ازدادت مياه العاصي التي تسيل من فرجات خاصة في هذا السد وكان الخصب في الأراضي التي تروى من مائه. قلنا إن هذا السد قديم روماني وكان من يزوره يدرك لأول وهلة أنه لا يزال - دون أن تمسه يد تجدد أو إصلاح - على ما كان عليه من حيث العظمة وأنه شاهد عدل بعظمة روما ومجدها. ولكن يا للأسف فقد بدأت قواه تضمحل شيئاً فشيئاً مع الأيام والسنين حتى أضحى ولا يقوى على ضبط الماء، فأخذ هذا يسيل إلى جهات متعددة دون أن يقوم بأية فائدة ولئن دام هذا الإهمال فلسوف نرى أن بحيرة (قادس) قد أضحت أثراً بعد عين وستصاب حمص وحماة وغيرهما من البلدان التي يجتازها نهر العاصي بقلةِ المياه بعد أن كان يضرب المثل بكثرته وقد بدأت علائمها هذا العام حيث شاهدت أن قسماً غير قليل من شواطئ هذه البحيرة قد جفّ مائه[١] وأخذ فلاحو القرى المجاورة يفلحونها ويزرعونها كأنها منحة من منح الله.

فعسى أن تلتفت وزارة النافعة إلى هذه الجهة وتعمل على إصلاح هذا السدّ قبل أن

---

(١) الصواب: قد جفّ ماؤه.

يخرب فيتعذر عليها تشييده مجدداً وبينما نكون بحاجة إلى خمسة أو عشرة آلاف ليرة للإصلاح نصبح – ولا طاقة لنا لاحتمال المصاريف – بحاجة إلى مئات الألوف.

بحيرة البقاع

قال القلقشندي في الصبح[1] (٥: ٨٣) وهي مستنقعات ماء في جهة الغرب عن بعلبك على مسيرة يوم منها بها هيش وغابات قصب.

بحيرة حمص أو قدس

بحيرة حمص أو قَدس: كانت هذه البحيرة قديماً من سورية المجوفة وكثيراً ما جرت قربها مواقع منذ القديم بين المصريين والحثيين والرومان واليونان والعرب والإفرنج والصليبيين وغيرهم. وقادس اسم الكثير من الحصون والمدن، ففي فلسطين (قادس برفح) و(قادس يهوذا) و(قادس نفتالي) وهي قادس محوَّلة اليوم، وقادس الحثيين (ملوك ٢: فصل ٢٤).

وهي على بعد ثلث ساعة من ربلة إلى الشمال وطولها مسافة ساعتين وعرضها ساعة وهي مؤلفة من سدٍّ قديم يعترض جريان المياه طوله من ٤٠٠ – ٥٠٠ يرد وعلوّهُ ١٤ قدماً وعلى طرفه الشمالي الغربي برج وقصة حصارها هذا منقوشة على جدار صغير وفي الجهة الشمالية جزيرة صغيرة وتلّ.

حاصر قادس رعمسيس الثاني وكان حصنها منيعاً في وسط البحيرة وقصة حصارها هذا منقوشة على جدار هيكل الأقصر بمصر.

قال القلقشندي: «وهي بحيرة في أرض مستوية عن حمص في جهة الغرب على بعد يوم منها وطولها من الشمال إلى الجنوب نحو ثلث مرحلة وفي طرفها الشمالي سدّ ممتد في طولها مبني بالحجر الأسود من بناء الأوائل، وينسب بناؤه إلى الاسكندر، طوله شرقاً وغرباً

(١) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا: الصواب ٤: ٨٣ وليس ٥: ٨٣. والمستنقعات هي إلى الجنوب من بعلبك قرب عميق ومنطقتها في وسط البقاع، وليس إلى غربها حيث يقع جبل صنين (المحقّق).

ألف ومائتان وسبعة وثمانون ذراعاً وعرضه ثمانية عشر ذراعاً ونصف ذراع. وعلى وسط السد برجان من حجر أسود، والسد قديم ولكن الرومان أصلحوه»[1].

وهذه البحيرة هي سدّ العاصي لسقي الأرض حوله. وطول سدّها كيلومتر بعرض ٢٠ متراً من الأسفل إلى أن ينتهي إلى ستة أمتار ومعدّل علوه سبعة أمتار. وهذه البحيرة طولها خمسة كيلومترات بعرض أربعة كيلومترات. وهي تبعد عن منبع العاصي ٣٥ كيلومتراً. فإذا ارتفع حائطها الآن مترين وهو بعلو تسعة يصير بعلو أحد عشر متراً وتجمع ماء مائتي ألف متر مسطح وهذه الزيادة تسقي من الأرض مائة ألف دونم. فمنبع العاصي وعين الزرقاء من الهرمل وينابيع أخرى تصب في البحيرة ومجموع المياه التي تخرج من البركة في الثانية أربعة أمتار مكعبة.

ولما كنت مسافراً إلى حلب سنة ١٩٠٩ ومررت بقربها شاقني منظرها فتذكرت قول الشاعر:

بحيرة للعيون تبدو في غاية الحسن والصفاءِ
كأنها إذا صفت وراقت في الأرض جزء من السماءِ

ورأيتها مرة ثانية في ٢ أيلول سنة ١٩٣٦ أي بعد ٢٧ سنة لما ذهبت إلى حلب لإلقاء محاضرة فيها بعنوان (حضارة سورية الشمالية وآثارها).

وزرتها يوم الأربعاء في ٢٩ حزيران سنة ١٩٣٨ لما ذهبت إلى حمص لألقي محاضرة بكليتها الأرثوذكسية في (التربية والتعليم وأساليبهما وماذا نقتبس منهما) ورأيت فيها السد الجديد الذي عمله الفرنسيون لري الأرض.

(١) القلقشندي، المصدر نفسه ٤: ٣٣٧.

الفصل الخامس

في تربتها وصخورها
وحيواناتها ونباتاتها ومعادنها

التربة

إن تربة البقاع وبعلبك حمراء خصيبة ولا سيّما في السهول المجاورة للمياه وكذلك في المرتفعات، وقد اشتهرت منذ القديم بخصبها وكثرة أشجار الزيتون فيها والكروم والفواكه والحبوب المختلفة، وفي كثير منها الهوالك الحيوانية والأسمدة، ولو اعتنى الأهلون بتفريق المزابل (التي يملأُونها بالأوساخ الحيوانية والفضلات ويحرقونها فتصير رماداً تذريه الرياح في عيونهم وتملأ به بيوتهم) على مزروعاتهم ومغارسهم، وأتقنوا فن الزراعة بالحرث العميق وقلب واستخراج الأبخرة من بطنها، وعرفوا مقومات كل صنف مما يزرعون بحسب فن الزراعة لاغتنوا بحاصلاتهم الوافرة من جميع الأصناف فواكه وحبوباً وخضراوات وبقولاً.

وصخور اللبنانيْن في سفحي الوادي وعلى جانبيه صلبة ضخمة وهي بيضاء ذات مقاطع كانت قديماً تقطع منها الرضام أي الحجارة الضخمة كالصخور لتشييد الأبنية العظيمة مثل قلعة بعلبك وما أشبهها من القصور والهياكل.

ومن المقالع الحجرية فيها التي تصلح للبناء المتقن: المقلع السمَّاقي في جديتا والجهة الجنوبية من زحلة وكفرزبد.

والحجر العادي الصالح للبناء من قرية بستي الخربة فوق الفرزل وفوق كروم زحلة قرب قلعة المُشَيْرِفة أبنية زحلة الحالية منه.

وإلى شمال زحلة فوق بئر هاشم إلى وادي العرايش مقطع حجارة من المرمر (شحم بلحم)[1] بديع الصنع وهناك حجر أبيض صلب بديع. وأما ألوان المرمر فإنها تختلف بين

(١) يوجد مثل هذا الحجر المرمري (شحم بلحم) فوق غسطا من كسروان على أطرافها، وقرب برمانا في المتن السماقي الصدفي الذي فيه متحجرات. مثل أعمدة دير القلعة التي نقلت بعض أعمدتها وحجارتها إلى كنيسة اليسوعيين ببيروت وكنيسة البترون. (المؤلِّف).

البرتقالي والأحمر الزهري ونحو ذلك. وفي مذبح كنيسة الآباء اليسوعيين في زحلة وحول المذبح من هذا المرمر البديع ما يأخذ بمجامع القلوب. وهناك اليرمح أيضاً الحجر الأبيض. والمرمر الملون يوجد منه في قرية (لالا) من البقاع قرب جبّ جنين.

وأما في جنوبي زحلة، فيوجد قليل من الحجر السمّاقي قطعاً في الأرض منتشرة.

وتوجد بعض أعمدة من الكرانيت [الغرانيت] (المحبّب أو الأعبل) الأسود والأحمر الأسود مثل عمود في زحلة اتخذ محالةً (محدلة) لطريق العربات.

ومقلع مرمر مهم قرب التكية وعين في بعلبك.

حيواناتها ونباتاتها ومعادنها

قال الدكتور جورج بوست في كتابه (نبات سورية وفلسطين) المطبوع في بيروت سنة ١٨٨٤م صفحة ٤١١: «وعلى بعد نحو اثني عشر كيلومتراً من جبل لبنان سُلَيسلة ثانية توازيه وتسمَّى (الجبل الشرقي) هو (جبل الشيخ) وعلو بعض جرودها أيضاً نحو ثلاثة آلاف متر ونباتها يشبه نبات لبنان في الاختصاص ويحول بين هاتين السلسلتين سهل مرتفع نحو ألف متر فوق البحر هو (البقاع) وهو قعر بحيرة قديمة تشترك صفات نباته بنبات سهول شرقي سورية وينشأ فيه نهر الليطاني ويصب في البحر المتوسط في جنوبي لبنان. ونهر العاصي يصب قرب إنطاكية بين جبال النصيرية واللكام.

ويفصل بين لبنان وجبال شمالي فلسطين (سهل مرج عيون وبلاد الشقيف) وعرضه نحو عشرين كيلو متراً من جنوبي لبنان إلى شمالي بلاد بشارة...

كما يفصل سهل البقاع بين لبنان والجبل الشرقي هكذا، يفصل غور الأردن بين جبال فلسطين وجبال شرقي الأردن...» (أ. هـ).

كان النمر والأسد والضبع والذئب والدب وغيرها كثيراً في البقاع، والآن بقي بقايا قليلة من الضواري الأولى في البقاع الغربي وجزين حيث تكثر الغابات والمغاور والصخور المكهَّفة. ففوق عميق يوجد الآن النمر قليلاً والضبع والثعلب (والنمس الصغير) والذيب بكثرة وابن آوى في مشغرة وما يجاورها وإلى جنوبي مشغرة بعض قرى يكثر فيها الغابات والنمر الآن مثل لوسيا (سكانها متاولة) تخص مشغرة على بعد ثلاث ساعات عنها.

والصَّرَيْري سكانها دروز قربها على بعد ثلاث ساعات عن مشغرة والوردية (نصارى) من جزين على بعد أربع ساعات ففيها كلها الضواري والنمر قليلاً وغاباتها كثيفة.

السلّور: توجد أسماك كثيرة في الماء العذب ويكثر في بحيرات سويسره في أوربة[1] وفي بحيرات الشرق. والسلّور نوع من السمك (فيزوستوم) Silure يبلغ طوله خمسة أمتار أحياناً وهو يعيش في المائين[2] المالح والحلو. ولحمهُ لذيذ ويسمَّى (السلّور الهرّي) بسبب شواربه التي تشبه شوارب الهرّ ورأسه يشبهه أيضاً. ومنه نوع يسمَّى المبقَّع. وفي سوريا يسمّى (السمك الأسود) وعضته رديئة. وصيد الكبير منه بالحراب طعناً. ويوجد في محل يسمّى الغاب في أرض حماة تضمنه الأهالي من الحكومة. وهو كثير لذيذ أولع بأكله سكان المدن والقرى الداخلية. وأصل اسمه يوناني Silouros - (سيلوروس) من كلمتين بمعنى (المنحني الذنب) وقيل (المتحرك الذنب). وهو أكبر أسماك الماء الحلو في أوربة[3]. وهو بعلم الحيوان من رتبة الزعانف الرخوة والزعانف هي كالأجنحة. وفي بلاد اليونان عامة يسمونها مرسيني Mercini لأنها تشحن إليهم من مرسين فنسبوها إليها. هو موجود في نهر العاصي حيث يكثر الدَّغَل والأقصاب في أرض العمق والغاب كما مرَّ.

نباتاتها: لا شكَّ أنَّ سهلاً متسعاً منفرجاً بين جبلين عظيمين يسوّرانه ويرسلان إليه المياه الغزيرة من خزَّانيهما ليروي غليل أرضه. وحسن موقع تلك الأراضي السهلية والجبلية وطيب هوائها، كلها أدلّة على وجود أحسن النباتات وأزكى الرياحين، فلذلك كانت الكرمة والحبوب من أقدم الغراس ثم الزيتون بعدهما. ومن حاصلات هذه الأنبتة الثلاثة[4] تقدَّم القرابين في الهياكل القديمة، ولاسيّما عند شيوع عبادة باخوس إله الخمر، كانت الكرمة معتنى بغرسها معتمداً عليها كرسول أمين بين الناس والآلهة في ذلك العصر الجاهلي الوثني. وأطيب العنب وأحسن الخمور مأخوذة من هذه البقعة ومشارفها.

---

(١) أوروبة.

(٢) الماءين.

(٣) أوروبة.

(٤) الثلاث.

ولقد كانت الجبال المحدقة بسهلي البقاع وبعلبك وبوادي بَردى ويحفوفة مكسوَّة بالأشجار القديمة كأنها شعر في هامات جبالها وهضابها، فأصبحت اليوم جرداء لا ظلّ فيها يبرِّد لفحات حرّها المحرق. واكتشفت كتابة في أحد سفوح لبنان الشرقي ذكر فيها أن نبوخذ نصر[1] ملك بابل قطع من أخشاب تلك الجهة ما حمله لهياكله في الديار السحيقة في الشمال. وفي الصرود (الجرود) كثير من الكتابات التي تدل على حفظ الغابات وتجديدها ومنها ما كان مخصصاً لعبادة الآلهة مثل السرو لعشتروت.

قال شيخ الربوة في كتابه (نخبة الدهر) صفحة ١٩٩ ما نصُّه: وبجبل لبنان وسيّما بقضيبه[2] وأذياله نحو من تسعين عقاراً ونباتاً نافعاً مباحاً بلا ثمن وله قيمة جيدة وثمن يكتفي به الجامع طول سنة له ولأهله ومن ذلك الكثيراء والريباس والبرباريس والغاونيا وهو عود الصليب والقيسة والبقس والقيقب الذي يعملون[3] منه المرامل والملاعق وآلات المموّه بالذهب والفضة ويحمل إلى سائر البلاد والأقاليم وليس عملاً ألطف منه ولا أحسن. ومن النبات أيضاً شجر المحمودة والأشتوان والزراوند والحماما التي لا توجد إلاّن في إقليم دمشق بجبل لبنان وهو معلق في شقيق[4] عالٍ ما يقدروا على جنيه إلاّ يدلّوا جانيه بحبال من رأس جبل عالٍ كما يدلّى الدلو في البئر وهي لأجل الترياق الفاروق والراوندان (والقلنونيا)[5] واللوز المرّ والحلو والأبهل والقراصيا والزيزفون[6] وأما الفواكه فكثيرة جداً في لبنان. (أ.هـ).

أما أنبتة الجبال المحدقة به فهي من غراس المناطق المعتدلة الباردة ومعظمها حراج

---

(١) ملك وفاتح بابلي شهير سبقت ترجمته، خرّب أورشليم وسبى اليهود سنة ٥٨٦ ق.م (المحقّق).

(٢) يريد قمة ظهر القضيب في جبل المكمل شمال لبنان فوق منطقة الأرز، وهي جزء من السلسلة الجبلية الغربية التي تنحدر نحو سهل البقاع (المحقّق).

(٣) وفي حاشية لأهل بعلبك من إتقان العمل في الخفة والرفع والإدهان والتمويه بالذهب والفضة لما يصنعونه من آلات ملوكية وغيرها ما لا يعلم في إقليم آخر (المؤلف).

(٤) صوابها الشقيف وهي سريانية بمعنى صخر.

(٥) القلنونيا (الأبهل) وقشر شجر الخوخ واللوز (في نسخة) (المؤلف). علماً أن القلنونيا ليست الأبهل الذي هو عبارة عن جوز كما في بعض الموسوعات النباتية (المحقق).

(٦) وفي نسخة (يتخذ منه توز للقسيّ العربية وغيرها وتوز للنشّاب والجروح وهي حاشية) والصواب (الزيزفون) و(الجروخ) (المؤلف).

(أحراش) وغابات غبياء في أول عهد التاريخ والأزمنة القديمة قد توجت روابيها وآكامها وتحلّت أغوارها وأنجادها. وتزينت أوديتها وتلالها بأبدع الأشجار وأغرب النباتات ومن أهمّها الأرز المشهور بمتانته وكثرة ظلاله وجمال بسوقه وضخم جذوعه. وأرز جبل لبنان أشهر من أن يعرّفه التاريخ ومن ذلك السرو والشربين والسنديان واللّزاب والملُّول (البلُّوط). وجميعه مباءة للقطعان الكثيرة من الغنم والماعز.

وكثيراً ما ذكرت الآثار والكتابات أن الملوك أخذوا من أشجار البقاع وبعلبك وضواحيهما أخشاباً لبناء هياكلهم وهناك كتابات لحفظ الأشجار المقدسة التي وقفوها لآلهتهم.

وفي رحلة الأشرف قايتباي[1] الظاهري في القرن التاسع للهجرة يذكر أن البقاع كان كثير الأشجار.

ومما ترويه العامة من أقاصيصها أن جوراً حصل على بعض سكان البقاع فهجروهُ إلى أماكن بعيدة، وبعد مدة ذهب رجل من البقاع إلى حيث أقاموا فأخذ شيخ منهم يقص عليه ويسأل عن الغابات والأشجار التي كانت في المحلات التي تجاورهم حيث يقيمون. وقيل إن شيخاً آخر أعمى منهم أراد الرجوع إلى البقاع ليموت فيه فقال لأحد أولاده، أن يعيده إلى أرض أجداده، فأركبه على دابة وسار به، إلى أن عرف أنه وصل إلى أرض بعلبك، البقاع فصار يحنو رأسه، فسأله ولده عن ذلك فقال له: إنني في صبوتي أعهد الأشجار الكبيرة هنا أفليس أشجار؟ فقال له: لا، فتعجب من ذلك.

ومن نباتها البري (القتّ) وهو كالفِصَّة بلا شوك أي الفصَّة البرية. ومنه (القتات) وهو القتّاد بشوك كبير.

وأما مزروعاتها: فالحبوب والقطاني على أنواعها من صيفية وشتائية ومن أنواع البذار الحديث فيها القمح الدُّوشاني وهو نسبة إلى المسيو دوشان الفرنسي الذي سكن بر الياس

---

(١) هو قايتباي المحمودي، أبو النصر سيف الدين. سلطان الديار المصرية، من ملوك الجراكسة. كان من المماليك، اشتراه الأشرف برسباي صغيراً. بويع بالسلطنة بعد خلع الظاهر تمربغا سنة ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧ م. واستمر إلى أن مات سنة ٩٠١ هـ/ ١٤٩٥م (المحقّق).

فاستجلبه من فرنسة ونسب إليه وهو بلا حسك[1]. وفي كرك نوح [سكن] فيلكس شڤالييه الفرنسي من مهندسي ترعة السويس وفي شتورة المسيو بَرْوُن وبيت بولاد.

واشتهرت بعض أماكن منها بحبوبها، فالعدس مشهور في رعيت ولالا والقمح الشرقاني (المنسوب إلى بلاد الشرق) وهي جبل القلمون ولا سيّما البَرَيجي (نسبة إلى بلدة اسمها بُرَيج). والحمّص في القرعون وحمّارة والشعير في كفردبش. والقمح في عرسال والعنب في زحلة ونيحا وبيت شاما والتفاح والسفرجل في الزبداني والمشمش وبعض الفواكه في بعلبك والخوخ في قب الياس، وأنواع البقول والفاكهة في تعنايل حيث اتقنت الزراعة وأسست مدرسة لها والبطيخ في البقاع في غزة وتربل منه وفي الرستن والخسّ في علي النهري وريّاق وبعلبك.

المعادن والمناجم

الحديد واستخراجه: في غربي البقاع توجد غابات كثيرة منذ القديم وفيها حيوانات ضارية.

كان الحديد يستخرج قديماً من وادي السنديان بأراضي عين التينة (سكانها متاولة) وهو بين عين التينة (قرب مشغرة وتتبعها) والمزيرعة فيها آثار خبث الحديد وتراب أسود (يدل على المسابك) وقد خلت من شجر الآن. وبأرض ميدون هناك (مسابك) وفيها بقايا أشجار.

معادنُها: من أقدم معادن هذه السهول (النحاس) وكان كثيراً في الجبل الشرقي ولا يزال اسم كلشيس (عنجر) القديم يونانياً تعني (مدينة النحاس) وهناك (جرن النحاس) محل آخر أيضاً منسوب إليه وسمى المصريون عنجر (مات عاسي) مدينة النحاس. قال شيخ الربوة في (نخبة الدهر) صفحة ٨٤: (فالمرقشتيا الفضية) معدن بقرب يعفور من قرى دمشق، وبأرض حدث من جبل لبنان وبأرض جوسيه فوق كرك نوح (عم) والصواب المرقشيتا.

(١) وهو من الأنواع الصلبة، ويطلق على هذا القمح الذي لا حسك له في أكثر مناطق البقاع القمح الفرنساوي ولا ينسب إلى دوشان الفرنسي شخصيّاً. (المحقِّق).

و(الحديد) كان قديماً يستخرج من وادي السنديان وهو على مسافة ساعة ونصف من مشغرة إلى الجنوب بين كفرحونة ومشغرة. وهذا الوادي أرضه بيضاء فيها خبث الحديد حيث كانت المسابك، وهو اليوم من خراج دير المزيرعة في جزين. ومسافته من مشغرة إلى دير المزيرعة ساعة طولاً من الدير إلى كفرحونة نصف ساعة والمسافة ساعة ونصف بعرض أطول من الطول من الشرق إلى الغرب وهناك أشجار سنديان كثيرة باقية كانت تتخذ وقوداً للسبك في القديم فسمي الوادي باسمه ولقد جاء بعض أُسر (عيال) من دوما البترون[1] إلى مشغرة للشغل في الحديد مثل بني الحاج وهم حدّادون.

ويقال في أمثال لبنان: (لَوَيْن رايح على المسبك، من أين جايي من المْسَيبك).

محلة الغز: على بعد كيلو مترين عن محطة المريجات الحديدية فيها آثار معدن فحم حجري إلى الجنوب الغربي عنها اكتشف منذ نحو سنة ١٨٨١ م بسعي حبيب أفندي فارس من صليما نزيل المريجات ولم تزل طبقات الفحم السفلية غير ظاهرة وحُفر منه كثير حتى صار فيه نَفَق من اثني عشر كيلو متراً. ويظهر مع الفحم السندروس وكبريتات النحاس. وقد جاء مهندس ألماني مع ضباط عثمانيين في أثناء الحرب العامة سنة ١٩١٥ و١٩١٦ إلى هذا المحل وأجروا فيه حفريات لم تكن نتيجتها ذات شأن لأن منجمها عميق جدّاً يحتاج إلى نفقات طائلة.

والفحم الحجري في محلة (نبع العسل) موقع نبع العسل شمالي قرية بوارج (بوارش) إلى شمالي المريجات في جبل الكنيسة (جبل بوارج) كان قد باشر استخراج فحمه من منجم حفرهُ في ملك عزتلو سليم بك ثابت البيروتي صاحب قرية زبدل وبعض أراضي بوارج حبيب أفندي فارس. وسنة ١٩١٤م عادت شركة السكة الحديدية إلى استثماره، فجدَّدت حفرياته فالتزمه منها الشيخ فهد طنوس من حمَّانا واستخرج منه نحو أربعين ألف قنطار (أي عشرة آلاف طنّ) للسكة الحديدية فكان ذلك داعياً لاستمرار تسيير القطار الحديدي بين بيروت ودمشق وبعض الجهات الأخر. ولما اضطرت شركة السكة إلى تضعيف قيمة المستخرج من الفحم، احتاجت إلى نزع الفواصل من المغاور المحفورة بين الأنفاق، فتزلزلت الأرض

(١) هناك بلدتان بهذا الاسم، واحدة في شمالي لبنان، والثانية مركز قضاء في محافظة دمشق (المحقّق).

وتعطل العمل، واحتاج استثمار الحفر إلى نفقات باهظة فترك العمل. وكان يستخرج منه في صيف سنة ١٩١٥م مائة قنطار يومياً بسعر نحو مائة ليرة وفي شهر أيلول ١٩١٦ جددت الشركة الحفر بواسطة آلة البرّيمة للتحقيق عما إذا كان الفحم يوجد في الطبقات السفلية أو لا، لأن اعتقاد العارفين بهذه المعادن هو أنه يوجد في جبل لبنان من ثماني طبقات فحمية إلى اثنتي عشرة طبقة فحمية لم يستثمر منها حتى الآن سوى الطبقات الأولى السطحية حتى الرابعة.

منجم الجُوَيزة الفحمي: وإلى شمالي نبع العسل أيضاً منجم فحمي في محلة (الجويزة) من خراج قرية كفرسلوان في المتن الأعلى وقد اكتُشف هذا المعدن نحو سنة ١٨٨٦م وفحمهُ أشبه بقشور الصنوبر أو قشور شجر السنديان أي طبقات طبقات متراصفة، وفيه طبقات تشبه الصخور من ارتفاع متر إلى أكثر. وهذا الفحم يلتهب كالبترول (الكاز) وهو ذو رائحة زفتية أشبه برائحة الحُمَر ويحتوي على الحامض الكبريتي (أسيد سلفوريك) ولكنه بعد الالتهاب يبقى غير محترق. والمظنون أنه في الطبقات السفلية العميقة لا بدَّ من الوصول إلى فحم حجري صالح للوقيد ولتسيير القُطُر الحديدية. وفي ذلك المحل توجد آثار معادن نحاسية وكبريت.

منجم آخر إلى شمال الجنوب الغربي على مسافة ثلاثة كيلومترات من منجم الجويزة إلى شماليه الغربي منجم فحم بخراج قرية كفرسلوان أيضاً ومنه طبقات من هذا الفحم يبلغ سمكها نحو ثلاثة أمتار وكان بعض أصحاب المعامل الحريرية في متن لبنان يتخذون منها وقيد المعامل ولكن عدم احتراقها إلى أن تصير رماداً دعا إلى إهمالها.

منجم عين العَرَب: وفي الجهة الشمالية بمنقلب البقاع توجد معادن فحمية غنية جدّاً فإنها تبتدئ بطبقات سطحية أشبه بورق الكتابة تلتهب كالبترول، ثم تأتي بعدها طبقة ثانية تشبه الألواح الخشبية مثل لوح الجوز أو السرو أو الأرز، وبعدها طبقات حجرية صالحة للمطابع الحجرية تشحذ الفولاذ وبأسفلها طبقة فحمية مرصوفة نظير حجارة الأبنية، مما يدل على شدة الضغط الذي حصل لهذه الطبقات يبلغ وزن القطعة منها نحو مائة كيلو وأكثر. وبعدها في الطبقة السفلية نوع من الفحم الحجري يشبه بلمعانه السَّمك وتحته طبقة تشبه

الفحم المعجون بماء، فإذا مسَّها الهواء جفَّت. وإذا أشعلت أعطت حرارة شديدة بلون لهيب أبيض وهذه تتحوَّل إلى نوع من نوع فحم كوك وبعضها إلى رماد. ولم يكتشف شيء بعد هذه الطبقة ليعرف الباحث حالة المعدن في عمقه لانقطاع العمل عندها. وقد حفرت في هذه الأماكن ثلاثة أنفاق أحدها حفره الإيطاليون طوله عشرون متراً وجدت فيه طبقات الكهرباء السوداء مع آثار نحاس وفضة وآثار ذهب خفيفة. والمظنون أنه في الطبقات السفلية يوجد البترول (زيت الكاز أو الغاز) على رأي المسيو دي فَرُوْنتان أحد مهندسي المعادن الفرنسي الأصل لأنه بعد فحص هذا المعدن بتدقيق، رفع فيه تقريراً مُسْهَباً ذكر فيه أن تلك الأراضي غنية بمعادنها وأن فيها زيت النفط وحُمر. وهذه المعادن تمتد شمالاً بشرق حتى مقربة من عين حزير فوق زحلة على طريق المتن وشمالاً بغرب حتى أراضي مجدل ترشيش في متن لبنان وجنوباً حتى قرية كفرسلوان لجهة المتن. والمظنون أن هذه الطبقات تتصل بمناجم قرنايل (مُورك) وبزبدين التي كان قد استثمرها وأخرج فحمها وحديدها المغفور له إبراهيم باشا المصري عندما جاءَ سورية من سنة ١٨٣١ إلى سنة ١٨٤١م.

وهناك آثار حديد بكثرة وأعلى هذه المعادن في القلعة التي يرجَّح أن بومبي خرَّبها عندما نزل إلى البقاع وطريق العربات بين زحلة والمروج مارة في بُرَك العرب أو عين العرب التابعة لخراج قرية ترشيش في المتن الأعلى. وهنالك أراضٍ صلصالية تصلح لعمل الأواني الخزفية ورمل أشبه بكربونات الصودا أو البودرة.

ولقد زار مناجم الجُوَيْزة وبُرَك العَرَب قرب عين حزير المسيو أوهَرْت المهندس الألماني والمسيو كورتش الألماني أيضاً فقررا بعد التنقيب والبحث وجود طبقات فحمية حسنة جدّاً إلاَّ أنها عميقة، ومن رأيهما ورأي غيرهما من المهندسين الذين زاروا هذه الأماكن تحرياً في البحث عن المعادن، أن طبقات فحمية موجودة بعمق بعض أمكنة من سهل البقاع، فإذا أمكن الإنفاق عليها والوصول إلى عمقها العظيم، تكون غنية جدّاً وصالحة لتسيير القُطُر الحديدية في سورية. وفي هذين المنجمين نوع من المرقيشت النقية (Pirates) والكهرباء السوداء والصفراء.

الحُمَر: أهم مناجم الحُمَر في حاصبيا استخرجها حنا مسك البيروتي.

وفي سُحمر ويُحمر (حُمَر) استخرجهُ إبراهيم مسدّيه من دمشق وفارس رزق وكانوا[١] يرسلونه[٢] إلى بيروت ومنها إلى أوربة[٣] ليستعمل للصباغ ولم يستخرجوا[٤] كثيراً منه ولكن مخايل شلهوب الدمشقي استخرج كثيراً. ومن أرض حاصبيا إلى (سحمر ويحمر) جبل واحد من كوكبا إلى سحمر كله حُمَر. ويُحْمُر تبعد عن سحمر نحو ثلاثة أرباع الساعة.

و(الحُمَر) بالتخفيف لا بالتشديد (الحُمَّر) كما تقول العامة. وهو بالإفرنسية Asphalte وبالإنكليزية Asphalt ويقال له بالإفرنجية أيضاً كهرباء سدوم وبلسم الموميات وذلك لأن المصريين القدماء كانوا يتخذونهُ لتحنيط الموتى بطرق متقنة خفيت عنا أبوابها اليوم والعرب كذلك ولذلك سمَّوه (صمغ الجنائز) و(الموميا المعدنية) ولعل ذلك لأن الموميا المتخذة في مصر هي من تراب خاص ومعنى (مُوْميا) بالحبشية الطينة السوداء ويسميها اليونان تاريخوس أي يابس وقيل إنَّ اسمه (قفر اليهودية) تحريف كفرا قرية قرب بحيرة لوط وهو يتخذ للتداوي والصحَّة.

ويوجد منه معدن في وادي التيم قرب كوكبا (راجع حاصبيا بدائرة المعارف التي أخذنا منها هذه الفوائد) ويتخذ الحُمر في هذه البلاد طلاءً للأشجار ولا سيّما الكرمة، فيقيها ضربة الديدان المعروفة. (راجع دفن في دائرة المعارف العربية ٧:٧٠٥).

(١) وكانا
(٢) يرسلانه
(٣) أوروبة.
(٤) يستخرجا.

الفصل السادس

سكان سورية المجوّفة القدماء

ذرية سام — تم الدرس (١٠: ١ – ٢٨) (أصول الشعوب)

(١) العيلاميون
سكان بلاد عيلام
التي صارت بعد ذلك
من أعمال الفرس)

(٢) الأشوريون
سكان أشور
وهي الجزيرة أي القسم
الشمالي من بلاد ما بين
النهرين وجواره

(٣) العبرانيون
من ولد عابر بن شالح بن أرفكشاد.
واستقر قبيلهم في بلاد الكلدان
وهاجر منهم إبرهيم إلى بلاد
الكنعانيين فكان من نسله
بنو إسرائيل

(٤) العرب وأصلهم من يقطان وقحطان
بن عابر بن شالح بن أرفكشاد
بن سام وامتدوا في الحجاز
واليمن وسائر أنحاء بلاد العرب
وهم العرب العاربة أو العرباء

(٥) الآراميون والسلوقيون
وهم ولد أرام بن سام وكانت
مساكنهم دمشق وما إليها وأضيف
إليهم (ولد لود بن سام)
ومن هذين الأصلين العرب البائدة
أي عاد وثمود وجديس
وجرهم وأول الخ

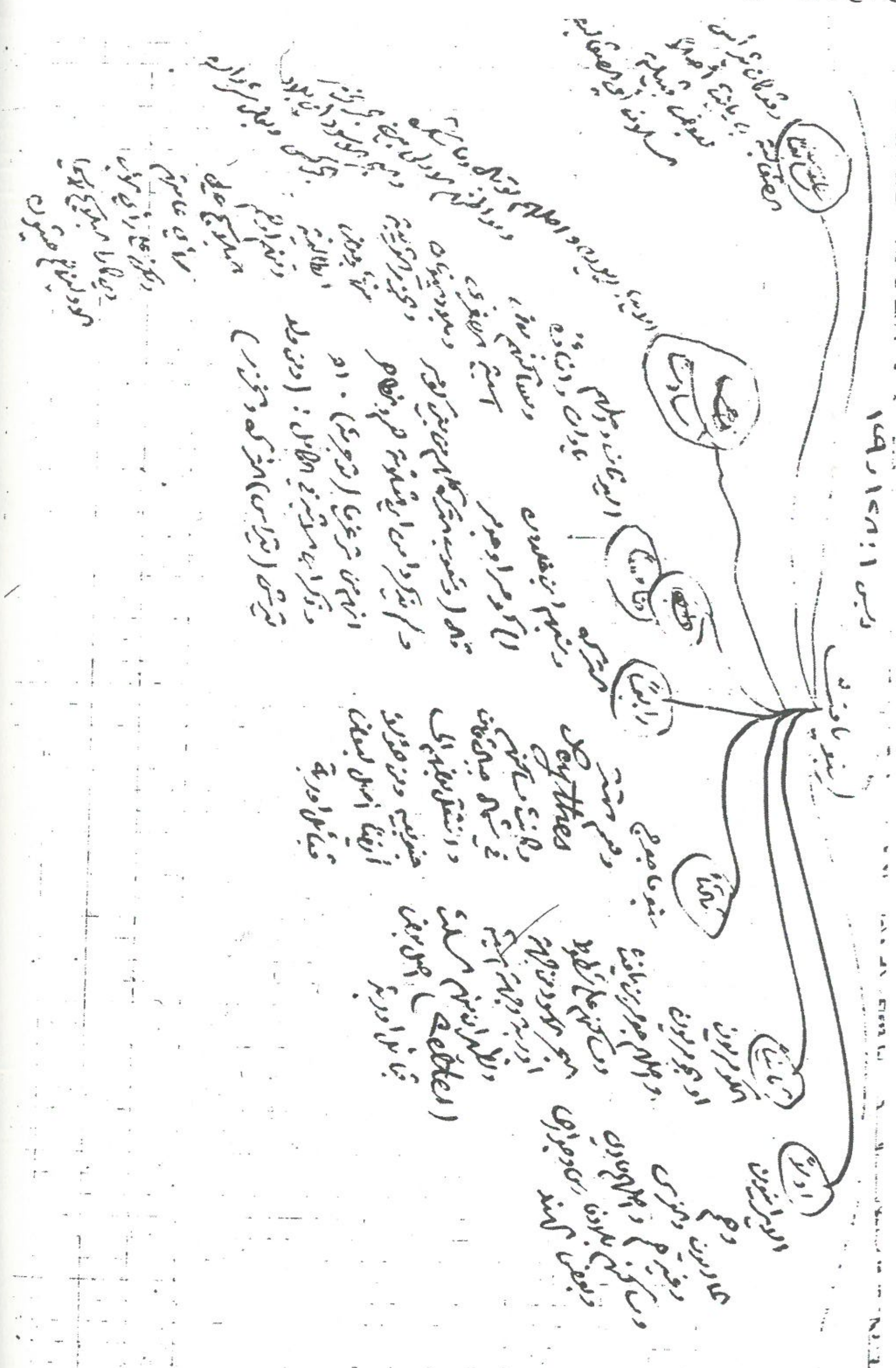
ذرية حام

(١) الكوشيون
وامتدت مساكنهم من بابل وعلى شطوط
الأوقيانوس الهندي حتى بلاد الحبشة ومصر
والآثار الكلدانية تؤيد هذا إذ تسمي شعوب ما بين النهرين (كوش)
(كاش) ويأتي من الكوشيين نمرود وتوسعه في بابل ومملكته المعروفة

(٢) بنو مصرائيم
وقد توطنت مصر وأكثر
في أكثر اللغات الشرقية
حتى اليوم تشير
بأصلها

(٣) بنو فوط
وقد سكنوا شطوط
أفريقية الشمالية على طول الطريق
أو بعضهم في الصين وسواحل على طول الأفريقيا
وغير ذلك

(٤) الكنعانيون
وقد أقاموا في السواحل السورية الشمالية وشطوط
البحر المتوسط الجنوبية فلسطين ومن
هؤلاء الحثيون
والحثيون وامتدوا إلى الشمال
الفينيقيون وأتوا إلى أوطان قبيلهم



ذرية سام:

١- العيلاميون[١]: سكان بلاد عيلام التي صارت بعد ذلك من أعمال (الفرس).

٢- الآشوريون: سكان آشور وهي الجزيرة، أي القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين وجواره.

٣- العبرانيون: من ولد عابر بن شالح بن ارفخاد[٢]. واستمر بعضهم في بلاد الكلدان، وهاجر منها إبراهيم إلى بلاد الكنعانيين فكان من نسله بنو إسرائيل.

٤- العرب وأصلهم يقطان أو قحطان بن عابر بن شالح بن ارفخاد بن سام، وامتدوا في الحجاز واليمن وسائر أعمال بلاد العرب وهم العرب العاربة أو العرباء.

٥- الآراميون: وهم ولد آرام بن سام وكانت مساكنهم دمشق وأعمالها، وأضيف إليهم (ولد لود بن سام). ومن هذين الأصلين العرب البائدة أيضاً، أي عاد وثمود وجديس وجرْهم الأولى الخ...

ذرية حام

١- الكوشيون: وامتدت مساكنهم من بابل وعلى شطوط الأوقيانوس الهندي حتى بلاد الحبشة ومصر والآثار المصرية تؤيد هذا إذ تسمي شعوب أعلى النيل (كوش) (كما مرَّ) وبقي من الكوشيين نمرود وقومه في بابل ومملكته المعروفة.

٢- بنو مصرائيم: وقد توطنت مصر واسمها في أكثر اللغات الشرقية حتى اليوم مشعر بأصلها.

---

(١) ورد اسم العيلاميين في سفر التكوين ١٠:٢٢ وينتسبون إلى سام بن نوح، وأنشأوا حضارة لهم في جنوب وجنوب غرب إيران الحالية ـ خوزستان، وقهروا السومريين والبابليين لتفوقهم العلمي عليهم، ثم تعرضوا للهزيمة. على أيديهم وبنوا عاصمتهم شوشان (سوسة) (دور انتاش) عام ١٣٠٠ ق.م.، وفتحوها أمام أصحاب الأديان والمعتقدات لممارسة طقوسهم، واستمرت حضارتهم ما بين ٢٧٠٠ ق.م و٥٣٩ ق.م، لكن شوشان ظلت مزدهرة حتى القرن ١٤ الميلادي. الانترنت (المحقق).

(٢) أرفخشد كما جاء في تاريخي المسعودي واليعقوبي، وهو ابن سام بن نوح. راجع: تاريخ المسعودي، تحقيق شارل بلا، منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٦، ج١، ص ٤٥، واليعقوبي، دار صادر، بيروت، ط.٦، ١٩٩٥، الجزء الأول، ص. ١٧ – ١٨. وهناك تفاصيل كثيرة حول ذرية نوح وابنائه (المحقّق).

٣- بنو فوط: وقد سكنوا شطوط أفريقية الشمالية على قول بعضهم أو بعض اليمن وسومال على قول الآخرين وهو الأظهر.

٤- الكنعانيون: وقد أهِلت بهم سهول سورية الشمالية وشطوط البحر المتوسط إلى جنوبي فلسطين ومن هؤلاء: الفينيقيون وأقاموا في وسط قبيلتهم - والحثيون وامتدوا إلى الشمال.

بنو يافث: (دبس ١: ١٢٨ و١٢٩)

أولاً: الإيرانيون: وهم الماريون والفرس وغيرهم وأصلهم ماري ومساكنهم بلاد فارس وجوارها وبعض الهند.

ثانياً: الكومريون أو الجومريون: وأصلهم جومر بن يافث، ومساكنهم على شطوط البحر الأسود من جهة أوروبة وجهة آسية. ويظهر أنَّ منهم السلت (Seltes) أصل بعض قبائل أوروبة.

ثالثاً: بنو ماجوج: وهم التتر(Sheytres) وكانت مساكنهم في شمال جبال قان، وانتقل بعضهم إلى جنوبيه، ومن هؤلاء أيضاً أصل لبعض قبائل أوروبة.

رابعاً: الترك: وتنسبهم ابن خلدون إلى كومر أو جومر قال: (وشعوب الترك كلهم من بني كومر) ولم يذكروا من أي الثلاثة هم والظاهر أنهم من ترغرما (توجرمة). (أ. هـ.). وذكر ابن الأثير في الكامل: «ومن ولد تيرش (تيراس) الترك والخزر».

خامساً: اليونان: وأصلهم ياوان وأبناؤه، ومساكنهم في آسية الصغرى وبلاد اليونان والجزر القريبة منها وبعض إيطالية، ومنهم أو هم البلاسج على رأي عامتهم، ولكن على رأي الأب دي كارا البلاسج لا سيما الأولين هم الحثيون.

سادساً: الايباريون: وأصلهم توبال وماسكة، ومواطنهم الأولى بين بحر الخزر والبحر الأسود، أي بلاد الجركس وبعض شروارة.

سابعاً: الصقالبة: وقد كان يترأس بايانيت أصلاً لبعض قبيلة سلاف أي الصقالبة.

في سكانها القدماء: من أقدم السكان الذين نزلوا في وادي سورية المجوّفة الآراميُّون المنتسبون إلى آرام بن سام بن نوح (عم) الأب الثاني للعالم بعد آدم (عم).

وفي التوراة على رواية موسى النبي كليم الله أن أبناء سام بن نوح كانوا خمسة وهم: عيلام وآشور وأرمك ولود وآرام. على أنه اقتصر على ذكر أنساب اثنين من الخمسة فقط وهما: أرمك ولأن من سلائل قومه الإسرائيليين، وآرام لأن منه قبائل جيرانه وأنسبائه الآراميين، وترك أعقاب عيلام وآشور ولود أو لاوذ كما يسميه العرب. على أن بعض مؤرخيهم عدَّ لود أو لاوذ هذا، ابناً لآرام والحقيقة أنه أخوه لا ابنه كما صرّح بذلك ابن خلدون وغيره نقلاً عن ابن حزم من قدماء النسَّابين، والذي أوقعهم في هذا الخطأ امتزاج قبيلتي لود وآرام وتداخل موطنيهما، فتوهموا أنهما كذلك.

١ - اللودانيون أو الروتانيُّون[١]

إن اللودانيين أو الروتانيين (تحريف الأولى كما في الآثار المصرية) هم من سلائل لود أو لاوذ أخ آرام فهو ابن سام بن نوح. وهذه القبائل اشتهرت في شمالي سورية وجزء من غربي ما بين النهرين، وهم الذين ذكرتهم الآثار المصرية باسم لودان المشرق أو الأعلى. واشتهروا في جنوبي سورية في دمشق وبلاد كنعان وما إليهما، وهم عشائر وهم المسمّون في تلك الآثار باسم لودان المغرب أو الأسفل. ومنهم العماليق ودولة حمورابي في العراق والرُعاة في مصر، فيكون اللودانيون أو الروتانيُّون[٢] هم أول من سكن سورية المجوَّفة متصلين بتخومها مالئين سهولها. ولقد ذكرهم المصريون في آثارهم باسم الروتانيين

(١) والروتان اليوم هم طائفة كاثوليكية وهي مشتقة من روتانيا اسم روسية القديمة على مذهب الروم الكاثوليك وهم في الولايات المتحدة الأميركانية وعددهم أكثر من ٣٧٠ ألفاً ولهم أسقف ولغتهم أشبه باللغة الروسية، وهي منتشرة في شرقي هنغاريا وغلاسيا وبوكوفينا وقوليدنيا وبودوليا ولهم كنائس عددها ١٤٠ على الطراز اليوناني و١١٨ كاهناً وأسقفاً روتانياً أقيم سنة ١٩٠٧. (المؤلف).

(٢) وذهب كثير من المؤرخين إلى أن عرب الشاشو (اليهود) أو الهيكسوس الرُعاة ملوك مصر هم والروتان من فصيلة واحدة. والروتنّو (Ratonou) في اللغة الهيروغليفية يراد بهم أهل الشام. (تاريخ العرب قبل الإسلام لزيدان)، وكذلك الدولة البابلية (حموارابي) (المؤلِّف).

أو الروتنّو وذلك ظاهر من تبادل الحروف المتقاربة، فإن اللاّم والرّاء تتبادلان وكذلك الدال والتاء. فتحريف كلمة اللودانيين بالروتانيين ظاهرٌ لا إشكال عليه. وقيل إن الكلمة الهيروغليفية المصرية الدالة على هذا الاسم تُقرأ (لودانو) أيضاً. فيكون الرأيان صحيحين لا غبار عليهما ولا تكذيب. وكذلك لفظة لوتنّو على رأي ثالث بالإبدال أيضاً.

لقد ورد ذكر هذه القبيلة الروتانية في آثار غزوة توطميسن (تحوتمس) الأول ملك مصر من الأسرة السابعة عشرة سنة ١٦٥٠ ق. م. وهو الذي غزا بلاد النوبة وما وراء إقليم فلسطين وأرض كنعان في السهول الواقعة بين دجلة والفرات حيث كانت طوائف متحالفة من الرتنّو أو الوتنّو (اللودانيين) نازلة في بلاد الجزيرة التي بين دجلة والفرات ومن مدنهم العظيمة نينوى وبابل وبلاد الكرد وكانت طريق التجارة إليهم تمر في فلسطين وسورية المجوّفة (سهل بعلبك والبقاع) ووادي العاصي إلى الفرات. فيذكر ضابط جيش هذا الملك الذي حارب الروتنّو واسمه احعمس ما ملخّصه:

«إن سيده الملك تحوتمس عاد إلى طيبة بعد أن غزا الروتنّو وهم أهل الشام الشمالية وجال بجيشه فيما بين النهرين حيث تحزبت عليه الأعداء فأوقع فيهم القتل والأسر إلى أن استظهر عليهم ولم يُحص عدد القتلى والأسرى. وكان ذلك القائد في مقدمة الفرسان وأظهر شجاعة وأبلى بلاءً حسناً. واغتنم عربة وبغلتين قدمهما للملك فأحسن إليه بعقد ذهبي» (أ.هـ).

وقيل إنه غنم خيلاً فأدخلها مصر ولم تكن تعرف فيها قبل ذلك، إذ لم تصوَّر على الآثار المكتشفة إلى الآن إلا بعد هذه الغزوة. وكذلك اسم الفرس عند المصريين كان (سوس) وهو سامي. وكان ملك توطميس الأول نحو سنة ٦٥٠ ق.م وحكم نحو ٢١ سنة.

وكذلك في غزوة توطميس الثالث الذي ملك نحو سنة ١٦٢٥ ق.م فعصى عليه الروتنّو وامتنعوا عن دفع الجزية التي ضربها عليهم توطميس الأول وامتدت الثورة إلى ما يجاورهم فخرجت آسية عن طاعة المصريين ولم يبقَ تحت حكم توطميس إلا غزة وضواحيها في فلسطين فحمل عليهم بجيش جرّار ونقش خبر هذه الغزوة على جدران هيكل الكرنك وفيه ذكر تدويخ الروتنّو. وكذلك وُجد على حجر في متحف بولاق منقول من هيكل الكرنك

صورة الملك الغازي وأقوال نثرية وشعرية بلسان أمون معبود طيبة يهنئ الملك بانتصاره منها هذه الفقرة: «ها أنا قد حضرت أمامك واذنتك أن تقتل بحسامك سكان بلاد آسية وأن تستأسر زعماء (الروتنّو) ولقد أريتهم جلالتك منتطقا[1] قابضاً أسلحتك مقاتلاً على عرباتك» (أ.هـ).

والذي عليه المحققون من المؤرخين اليوم أن مدينة قادش (قدس) على ضفة العاصي وبحيرتها المعروفة اليوم ببحيرة قطينة وأطلالها الدائرة كانت عاصمتهم في الجنوب. وكركميش على ضفة الفرات وهي المعروفة اليوم بجرابوليس كانت عاصمتهم في الشمال. وذلك في مساكنهم الشمالية. أما في منازلهم الجنوبية فربما كانت عاصمتهم دمشق أو مدينة أخرى في سورية المجوفة.

قال لانورمان: إن اسم الروتنّو أطلق على معظم سكان سورية وخالفه الأب دي كارا بقوله: إن ذلك نشأ من زعامة الروتنّو واستلامهم قيادة الجيش السوري على عهد ابرهيم الخليل وفي أكثر المدة التي كان فيها الإسرائيليون في مصر. ومازالت شهرتهم في أوج علائها إلى عصر الدولة الثامنة عشرة في مصر قبل خروج بني اسرائيل منها.

ولما نشأ الحثيون وناصبوا الروتنّو العداء انتزعوا منهم مدنهم وسلطتهم شيئاً فشيئاً وامتنعوا عن دفع الجزية إلى أن أذلوهم وملكوا مكانهم فكانوا يندغمون بأنسبائهم الآراميين حتى تنوسي اسمهم الروتنّو واشتهر اسم الآراميين. وعرفت بلاد الحثيين بعد ذلك باسم (بلاد الروتنّو) فقط وكذلك سورية المجوفة نسبت إليهم.

قال مسبرو الفرنسي في تاريخه (شعوب المشرق) صفحة ٢٠٨ ما معرَّبه: احموسيس الأول ملك مصر بزمنه صارت حرب أهلية للحرية ومحاربة الحبش والفرات وحارب (الروتانو) وأخذ منهم حصناً منيعاً كان انباراً للتجارة. وقال في ص ٢٣٩: أسرهم (أي الروتانو) توطميس الثالث حسب كتابة الكرنك (باسم الاله اتيت وأعطيتك أن تخضع برابرة سورية وتوسر رؤساء شعوب الروتانيين).

وقال في ص ٢٧٨: يراجع الماضي أن الروتانيين ثاروا على المصريين مع سوريي

---

(١) الصواب متمنطقاً، وليس منتطقاً كما هو وارد في النص (المحقّق).

الشمال فأخمدها توطميس الثالث وأسرهم. إنما في زمن تملك الفرس على سورية ومصر في زمن كورش كان الروتان قد انمحوا من سورية من سنة ٦٤٤ ق.م (أي من اواسط القرن السابع فنازلاً).

وقال: في الأثر الجليل لقدماء وادي النيل (ص ٢٤٥) بلاد الروتنّو (البقاع)... وبلاد الروتنّو (بلاد الاشوريين او الكلدان).

وظن بعض المؤرخين أن الروتنّو من فصائل الحثيين وقد أوهمه ذلك أنهم خلفوهم فظُن أنهم من أنسبائهم والحقيقة كما قدمنا من أخوة الآراميين المندغمين فيهم اندماغاً كاملاً حتى لم يتميز أمرهم بعد ذلك بشيء.

وربما الذي أوقعهم في هذا الوهم أن هيئة الحثيين من حيث وجوههم وشواربهم وشعور رؤوسهم ويتركون في أعلاها ناصية فقط وشعورهم سوداء ولباسهم قميص مستطيل يتصل إلى العقب. ويظهر من صورهم على الآثار المصرية أنهم حفاة دلالة اسرهم وفي آثار مواطنهم ترى صور أحذيتهم معكّفة إلى ما فوق كأحذية القرون الوسطى وكانوا يشنّفون آذانهم. فهذه المشاركات بين الحثيين والروتانيين كانت من المجاورة لا من النسب.

وفي المتحف البريطاني أثر من طيبة المصرية ربما نقش في عصر الدولة الثامنة عشرة تمثل رجالاً من الروتانّو (سكان سورية أو الساميين) يقدمون الذبائح هدايا لفرعون أو أحد رجاله الخاصة. وبعضهم ساجد بوجهه إلى الأرض والآخر رافع يديه للدعاء له وبينهم صبي وهم يلقون التقادم عند رجلي المقدمة له. وكل منهم إلا الصبي مرتدٍ بثوبٍ طويل أبيض معلم وسمات وجوههم وعيونهم أشبه بسمات اليهود أو العرب ولحاهم مطلقة نظرهم كأنهم أخوة يوسف يقدمون له هداياهم.

وذكر ابن اسحاق النسّابة أن للاوذ (للود) أربعة أعقاب هم طسم وعمليق وجرجان وفارس وجاراه المؤرخون الناقلون مثل ابن خلدون وأبي الفدا فتكون على هذا القول العرب البائدة من سلائله.

وهكذا انتهت حياة مملكة الروتنّو باندغام قبائلها في الآراميين على أثر غلبة الحثيين أياهم ومهاجرتها إلى الجنوب فاحتلت سورية المجوّفة ووادي الزبداني وبردى إلى دمشق ممثلة في ما يجاورها.

وعمّ اسم آرام جميع هذه القبائل بعد انقراض ملك الحثيين في القرن الثامن قبل الميلاد، فصار معظم سورية يسمّى آرام ولهم في التاريخ وقائع وحوادث وممالك.

ولقد ذكرت الآثار المصرية في غزوة توطميس الثالث التي مرّت الإشارة إليها أنه استولى على ١١٩ مدينة في بلاد الروتنّو (أو سورية) منها يافا وصور ومجدو وعكاء وبيروت ودمشق وارواد وحماة وقادش على ضفة العاصي عاصمة أمة الروتنّو في الشمال وكركميش على الفرات. مما يؤيد رأي الأب دي كارا أن أمة الروتنّو كانت زعيمة جميع القبائل السورية.

بقي علينا البحث في أسماء الأماكن التي نزلوها، فلعلّ لنا من الأدلة ما يثبت صحة هذا القول. وهو أن الروتنّو امتدوا في سهول العاصي والليطاني وبردى مما يدور عليه البحث الآن.

لا نجد في الأسماء التي بقيت في منازل ومواطن الروتنّو أظهر من أسماء بعض أماكن سورية المجوّفة ووادي الزبداني وبردى المصرحة بأسمائهم بلا ريبة.

إن اسم نهر الليطاني هو بلا مراء تحريف كلمة لوداني أو روتاني كما هو ظاهر اللفظ وقاعدة الابدال. يدل على ذلك تصريح مؤرخي العرب بتسمية نهر (ليطه) أو (لنطة) مثل الشريف الأدريسي في جغرافيته وشمس الدين الدمشقي وأبي الفدا الحموي وشهاب الدين العمري في كتبهم الجغرافية. وليست تلك الكلمة إلا تحريف (روتن) أو (لوده). وأما الليطاني فتحريف الروتاني أو اللوداني بإبدال التاء طاءً أيضاً. أما قول بعضهم إنه تحريف لاونتيس Leontes أي نهر الأسد فليس يثبت لأن نهر الليطاني ليس نهر الأسد بعينه. ومن قرى سورية المجوّفة اسم (بريتان) وهي كثيرة الشبه (ببيت روتان) على احدى اللغتين في اسم القبيلة. ومن قرى الزبداني (بلودان)، وهي ليست إلا (بيت لودان) على احدى اللغتين أيضاً. ومن قرى البقاع عرجموش وليست إلا كركميش كما يظهر للباحث، ونرجح أنها مركبة من كلمتي (ارك) و(كموش) وهما من أسماء عشتروت (الزهرة) للذكر والأنثى عند البابليين. فهي من أسماء عواصمهم المشهورة.

وإذا أردنا التوسع أكثر في اشتقاق الأسماء مع تساهل في القلب والإبدال والتغيير من تحريف وتصحيف ونحت ونحو ذلك، نجد أن اسم مدينة (بيروت) ربما كان (بيت روت) جمع بئر في الفينيقية كما هو مشهور. والرأيان ممكنان ولكن الأول أولى بالذكر لشيوعه. وقد مرّ اسم هذه المدينة في فتوحات توطميس الثالث وكانت مما فتحه وامتلكه.

وكذلك بلدة (برتي) في ضواحي جزين من لبنان يترجح أنها تحريف (بيت روتي) مثلاً. وإذا تبسطنا أكثر نجد أن (بردى) وهو اسم نهر دمشق المشهور ربما كان منسوبا إليهم فيكون أصله (بيت روتا) ثم (بروتا) ثم بالإبدال والحذف صارت (بَرَدى) لما بين الدال والتاء من المقاربة. وكذلك (بردوني) اسم نهر زحلة ربما كان من (بيت روتوني) فصار كذلك بهذه العوامل ولا يزال في بلاد بعلبك قرية اسمها (حوش بردى) قرب مدينة بعلبك تساعد على صحة هذا الاشتقاق.

وإذا أخذنا الرأي الثاني في الكلمة وهو أن أصل (لود) كانت مدينة (لد) قريبة منها وهي في فلسطين. و(بلودة) فوق زحلة من (بيت لودة). و(بودية) في بلاد بعلبك ربما كانت تحريف (بيت لودية). و(بلوذا) وبلاط في لبنان وأشباهها من هذا القبيل وبلوذا من قرى جبة بشري في لبنان ينسب إليها البطريرك جبرائيل البلوزاوي المتقشف. وإذا نظرنا إلى امكان التلاعب في الإبدال بأكثر مما مرّ فربما كانت (الرمثانية) فوق زحلة تحريف (الروتانية) مثلاً وما أشبهها. و(اوتان) بلدة وراء الهرمل تحريف روتان.

أما كلمة (ليدية) حيث ولاية أزمير اليوم في الأناضول فليست بدلالة على أن اللوديين سكنوها لأن سكانها القدماء يافثيون فهم بعيدون عن الساميين[1] فلا تغتر اذن بالمناسبة الا اذا كانت ثابتة صحيحة. والروتانو في خمسة فيها غيرهم أيضاً فانظر الآن إلى هذه الأدلة الصريحة واعتمد على تسميات الأماكن أحياناً في إثبات الآراء التاريخية لأنها بقايا ألفاظ مستعملة عند الأمم التي تديّرتها.

---

(١) قال يوسيفوس اليهودي إنها منسوبة إلى لود بن سام بن نوح (تك:١٠: ٢٣). وقال هيرودوت إنها نسبت إلى ليدوس أحد ملوكها وهذا هو الأرجح اليوم. ولما عاد اشوربانبال ملك اشور المتملك سنة ٦٦٨ ق.م فائزاً من غزواته وفد غيجيس ملك ليدية في غربي آسية الصغرى لتهنئته وجان اويل مردوخ الكلداني وهو نبوناديوس ملك ليدية سنة ٥٣٩ ق.م (المؤلف).

فأقدم سكان سورية المجوفة اذن اللودانيون أو الروتانيون الذين اثبتت صحة اسمهم الآثار المصرية القديمة والتسميات، فلم يبق من ريب أن هذه القبائل النازلة من سام بن نوح كانت في مهد حضارتها من القبائل الباسلة في الحروب لأنها جشّمت الجنود المصريين مشاقات كثيرة حتى استظهروا عليها. وكذلك قاومت الحثيين في غزواتهم مقاومة عظيمة إلى أن قضي عليها بالاذلال والتشتت فانضوت إلى اخواتها القبائل الآرامية وامتزجت بها امتزاج الماء بالراح ولم يبق اسمها الا على صفحات الصخور والأوراق واسلات الألسنة فسبحان الحي الباقي.

٢ -الآراميون أو قدماء السريان

الآراميون ينتسبون إلى آرام بن سام بن نوح(عم) أخ لود أو لاوذ كما مرّ بيان ذلك قريباً[1]. ومعنى كلمة آرام العبرانية مرتفع فلهذا تكون بلاد الآراميين بمعنى بلاد المرتفعين. والبلاد التي سميت بآرام هي من البحر الكبير إلى ما بين النهرين وسميت بعد ذلك سورية كما سترى. وكان لآرام خامس اولاد سام من الولد (عوص وحُول وجاثر وماش وأدمت) وقد اقاموا في دمشق وأنحائها ولاسيما سورية المجوفة.

فعوص سكن بلاد اللجاء في حوران وهي التي ذكرها الكتاب أنها أرض أيوب الصدّيق وهي المسماة ارجوب وتراخونيتس. وذكرت الآثار المصرية اسم شعب (عوصو) في حوران واللجاء. ويقال إن عوصاً هذا بنى دمشق.

فميشا بن آرام[2] بقي من البلدان المنتسبة إليه مدينة ميشا ويرجح أنها (ميس) غربي

---

(١) سابقاً.

(٢) لا تشير المصادر العربية من بين أبناء آرام إلى ميشا، لكنها تتحدث عن عاد بن عُوص بن إرم. ويقول المسعودي إنهم كانوا ينزلون الأحقاف من الرمل، فأرسل الله إليهم أخاهم هوداً (عم) وثمود بن غاثر بن أرم... لكنه يتحدث عن ماس بوصفه من بني عبيل بن عوص أخي عاد بن عوص أبناء إرم بن سام. ونزل ماس أرض بابل على شاطئ الفرات فولد نمرود بن ماس، وهو الذي بنى الصرح ببابل وجسر بابل على شاطئ الفرات وملك خمسماية سنة وهو ملك النبط. وفي زمانه فرّق الله الألسن، راجع المسعودي، مروج الذهب، ج. ١، ص ٤٥-٤٦ (المحقّق).

بحيرة ميروم (الحولة). وقال بعضهم إن (مشغرة) في البقاع منحوتة من كلمتين (ميشا) هذا و(كارا) أو (كرك) أو (كرخ) بمعنى حصن فيكون معناها حصن ميشا أو هي لفظة حثية. ولعل ميسة أو ماسة في البقاع تحريف ميشا أيضاً.

وحُول ثاني أولاد آرام بقي من آثاره تسمية (الحُولة) باسمه وهي في سفح جبل الشيخ (حرمون). و(حُول) بمعنى الانخفاض وهو ربما كان أصلاً لاسم كيليسورية التي يترجح أنها ترجمة كلمة حول بعينها الدالة على الانخفاض والتجويف والوادي اطلقها عليه اليونان من حدّ عدوتي البحر المائت (الميِّت) إلى تخوم انطاكية.

وجاثر أو جاشر اقام في بلاد ايطورية (الجيدور) وتسمى بلاده ارض جشور ايضاً وكلها بمعنى.

وسميت مواضع كثيرة باسم آرام مثل (آرام دمشق) و(آرام ما بين النهرين) و(آرام صوبة).

واستفحل شأن الفصائل الآرامية في وسط سورية وفي شرقيها وكان قطب ممالكها دمشق، ولقد اشتهر اسم الروتانيين قبلهم كما مرّ وهم أخوتهم شقّ الابلمة على أنهم بعد انقراض الحثيين غالبيهم على بلادهم الروتانية في القرن الثامن قبل الميلاد صار اسم آرام عاماً جميع البلدان التي نزلوها وكان معظم سورية يسمى باسم (آرام) فاندغم الروتنو بهم كما مرّ وبقي اسم آرام إلى فتوح اليونانيين في القرن الرابع قبل الميلاد فاندثر بظهور النصرانية. وأول من بدّل تسمية الآراميين بالسوريين اليونان وأول من ذكره هيرودوتس المؤرخ الشهير. وسورية مختصر اشورية نسبة إلى بلاد آشور.

وتفرق الآراميون في ما بين النهرين وسورية وما إليهما وفي الآثار المسمارية ورد اسم آرام كثيراً والمراد به تارة مساكنهم في سورية وصون بين النهرين وأحياناً في الاقليمين معاً.

وروى الأب لامرتين اليسوعي في تاريخ لبنان (٤: ٧١) أن السلطان انتقل من ايدي آرام إلى ايدي كنعان... وكان الآراميون إلى ذلك الحين يعمِّرون جميع الجهة التي سميت من بعد (بسورية المجوفة). ويشغلون بواسطة القبائل الجبلية والبيروتية معظم ثغور لبنان.

فلذلك كانت نزعة مستعمرات جبيل وبيروت آرامية لا فينيقية مثل صيدا وغيرها. وكان معبودان ادونيس وأسترتة (عشتروت) مشتركيْن بين سكان جبيل وقبرس في مدن كثيرة.

٣ - الحوّيون والحثّيون والفينيقيون واليبوسيون

قلنا إن حام بن نوح كان بكرَهُ وأعقب كنعان[١] صيدون بك ومن سلالته الفينيقيون وحثّا ومنه الحثّيون. وغيرهم ممن لا يهمنا أمرهم كما يهمنا هؤلاء، والكنعانيون أول من هاجر إلى فلسطين وسورية.

(فالفينيقيون) ينتسبون إلى كلمة فينيقي التي سماهم بها اليونانيون مطلقة على مساكنهم وتعرف عند غيرهم باسم بلاد كنعان. واسم فينيقية في الآثار المصرية (كفتا) و(زاهي).

وفي الآثار الأشورية (مات احاري) أي بلاد المغرب. ومعنى فينيقية النخيل باليونانية لكثرة هذه الأشجار في بلادهم ولعله أرجح الأقوال.

وامتد الفينيقيون قبل فتح يشوع بن نون الإسرائيلي لفلسطين من تخوم انطاكية إلى غزة كما صرّح بذلك المؤرخ هيرودوتس اليوناني. وقسِّمت بلادهم إلى فينيقية البحرية وهي تشتمل المدن السورية الساحلية على شاطئ بحر الروم، وفينيقية اللبنانية وهي تشمل بعلبك ودمشق وما إليهما.

وكانت قوافل الفينيقيين التجارية تخترق سهول سورية المجوفة إلى الشمال حتى بلاد الأشوريين وتعود إلى السواحل على قنا حضرتي[٢]. ولقد حفروا معادن الجبلين الشرقي والغربي اللبنانيين.

وربما كانت كلمة (قطين) لبحيرة حمص من اسم الحثيين (كيتينية). وكذلك اسم

---

(١) معنى (كنعان) المنخفض. وأبناء كنعان هم (١) صيدون (٢) حث (٣) يبوس (٤) امور (٥) جرجاش (٦) حوّ (٧) عرقي (٨) سين (٩) ارواد (١٠) صحار (١١) حماة. وإليه تنتسب القبائل النازلة من كل هؤلاء كالصيدونيين والحثيين والاموريين والجرجاشيين والحويين والعرقيين والسينيين والاروادين والصحاريين والحماتيين (المؤلف).

(٢) هكذا في الأصل.

(هيت) لقرية من أعمال حمص تحريف (هيث).و(قطنا) قرب دمشق. و(الغوطة) حول دمشق.

و«الحوّيون» اتصلوا بنواحي جبل الشيخ (حرمون) ولبنان، قال الأب لامرتين في تاريخه المعرَّب (ص ٤٥١): إن الحوّيين كانوا يسكنون من حرمون إلى مداخل حماة. ونسب بعضهم تجديد بعلبك مدينة الجبابرة إلى العياقيين والحوِّيين والرومانيين. قال الدبس في تاريخ سوريا (١: ١١٣): وقد ترجم اسمهم في الترجمة (الترعوم) الأورشلمية بالطرابلسيين كأنهم بعد أن طردهم يشوع بحانون من فلسطين ارتحلوا إلى طرابلس أو انحائها مع اخوانهم العرقيين سكان عرقا في عمل عكار والسينيين هم إلى شمالي عرقا.

و«الحثيون» المنتسبين[1] إلى حث بن كنعان بن حام بن نوح هم فرعان من حث أحدهما سكن بين الفرات والعاصي، والآخر في فلسطين. وكانوا كلفين بالتجارة. و(حث) معناها الخوف والهول والجزع والرعب، فالحثيون كانوا يخيفون غيرهم. و(الحنط) يونانية اسم «لحث» بمعناها وسميت بها الأراضي حول الحولة. ولعل الحت منها قطين وقطنا.

و«الحثيون» وهم أعظم هؤلاء بسالة وفتوحاً فإنهم ما زالوا يشنون الغارات على اللودانيين أو الروتانيين أقدم سكان سورية المجوفة ويناصبونهم العداء إلى أن امتلكوا أرضهم.

ونزل الحثيون أولاً جبل أمانوس(اللكام) ثم انتشروا من الفرات إلى حماة وحمص ومن دمشق وبرية تدمر إلى الكبادوك وحاربوا رعمسيس الثاني ملك مصر واستولوا على كركميش وحلب وحماة وقادس وسمّوا في التوراة حثّيي قادس وكانت لهم مراكز حصينة في كركميش وحلب وحماة وما إليها حتى امتدت ولايتهم من لبنان إلى الفرات وعاصمتهم كركميش. فكانت كركميش للحثيين في محاربة الأشوريين كما كانت قادس لهم في محاربة المصريين. وكانت كركميش مخفرة الفرات ومحطة تجارية بين مغرب آسيا ومشرقها (أشعيا١٠: ٩) و(أرميا ٤٦: ٢) و(أخبار الأيام الثاني ٣٥: ٢٠).

وقادس كانت حصناً منيعاً فقط (لا تجارياً) يخفر طريق آسية في وادي العاصي.

(١) المنتسبون.

ومن مدن الحثيين الشهيرة كركميش على الفرات شرق (حلمان أو حلفان) أي حلب.

ومنها (خرزاز) وهي أعزاز الآن في قضاء كلّس قرب حلب.

و(تل ارفال) على بعد ساعتين نحو الغرب الشمالي من حلب وهي مدينة أرباد القديمة جداً كان سكانها حثّيين وحاصرها شلمناصر سنتين حتى فتحها.

وقادس الحثيين كانت معبداً لعشتروت (القمر) وكانت قبلاً لأسلافهم الروتانيين فحاصرها تحوتمس ملك مصر قبل موسى وفتحها عنوة ودكّ حصونها وعاد ملك قادس فحصنها.

وتغلب الحثيون على الروتان وأخذوا أرضهم وذاع بأس الحثيين وسطوتهم في عهد دولة الرعمسيين وهي الدولة التاسعة عشرة ورأسها رعمسيس الأول فزحف على الحثيين فوقفوا في طريقه بالعاصي فصالحهم. وخلف رعمسيس ساتي الأول ابنه فغزا سورية والحثيين ولم ينل ظفراً فخلفه ابنه رعمسيس الثاني (سيزوتريس) الذي ملك في اواخر القرن السادس عشر وأوائل الخامس عشر ق.م فغزا سورية مرتين في السنة الخامسة من ملكه ودخل من طريق حصن الأكراد غربي حمص وأصلى وطيس موقعة قادس بينهم فأظهر رعمسيس شجاعة فائقة وكان معه شاعره بنتاؤور فنظم قصيدة في هذه الموقعة ودارت الدائرة على الحثيين وطلبوا الصلح فعاد ظافراً وزحف ثانية عليهم فدامت الحرب نحو ١٥ سنة وتزوج رعمسيس بابنة ملك حماة كيتاسار.

وحدثت في وادي العاصي موقعة بين الحثيين ومحالفيهم وشلمناصر الثالث ملك اشور فقتل منهم ٢٦٠٠ واستأسر إلى نينوى ٤٦٠٠ وملك في سنة ٨٥٨ – ٨٢٣ ق.م وأعاد الكرة ثانية على الحثيين وبلغ وادي العاصي فقاتل أثني عشر ملكاً متخالفين عليه وقتل من جنودهم أربعة عشر ألفاً.

أما اليبوسيون فالظاهر أنهم اتصلوا بسورية المجوفة إذ لا يزال في جبل الزبداني اسم قرية كفريبوس وجبل يبوس مما يدل عليهم.

«الصحاريّون»

إن الصحاريين هم أبناء صحار عاشر ابناء كنعان ومعنى (صحاري) الصوف أي الفرع وتوهم بعضهم أن الصحاريين هم نفس السامريين وذلك خطأ فاحش لأن بين الاسمين فرقاً بعيداً وأبعد منه جنسي الشعبين فإن السامريين هم من بقايا البابليين والآشوريين الذين حملهم نبوخذنصر من بلاده ليسكنوا محل اليهود.

وقد بنى الصحاريون اخص ممالك سورية المجوفة من بعد سقوط (قَدَس) الكثيرة الشهرة في الآثار المصريين[1].

وربما نسبت إليهم صحار جبيل في كسروان.

«الأموريون»

تاريخ الدبس سورية (١: ١١٢): «والأموريون من سلالة كنعان كانوا يسكنون جبل افرائيم ويهوذا عند استيلاء بني اسرائيل على أرض الموعد وكانوا قد امتدوا غرباً حتى البحر الميت وعبروا قبل عهد موسى الاردن وشيدوا مملكة باسان وحشبو. وفي الآثار المصرية:ذكر لفصيلة أمورية تسكن جهات قادس وعند منبع العاصي في الشمال من بعلبك». (أ.هـ)

«الحماتيون»

تاريخ الدبس (١:١١٤) سكان حماة على العاصي وباسمهم سميت.

٤ – العبرانيون أو الاسرائيليون واليهود

المشهور أن ابرهيم الخليل عبر نهر الفرات قادماً إلى سورية في الجنوب سمّي العبراني (أي العابر النهر) واطلق على سلالته اسم العبرانيين ثم نسبوا إلى يهوذا أحد مشاهيرهم، وإلى يعقوب الملقب اسرائيل.

(١) وردت هكذا في الأصل، والصواب في الآثار المصرية.

وكان العبرانيون يزاحمون الكنعانيين بالمناكب ولكنهم مع كثرة محاربتهم لهم لم يتصلوا بسورية المجوفة أو بالاحرى بأطرافها الجنوبية حتى مدات طويلة متراخية فملكوا حرمون أو جبل الشيخ وما إليه.

وفي زمن المكابيين امتدت سلطتهم في سورية وامتلكوا امارات كلشيس (عنجر) وابيلية (سوق وادي بردى).

الحثيون: روى الأب لامرتين اليسوعي في تاريخ لبنان أن اسم (خِتّا أو كِتّا) في الكتابات الهيروغليفية. و(خِتّي) في كتابات آشور المسمارية.

وهم من ذرية كنعان وأبناء أخت (الهول) ثاني أولاد كنعان. توطميس الثالث لم يجد في وادي العاصي إلاّ شعب الروتن ولكن رعمسيس الأول وخلفاؤه وجدوا الحثيين في غزواتهم.

وكان الفضل في اكتشافات كتابات الحثيين[1] لبوركرد الجوّالة الإنكليزي الذي اطلع على كتابات في حماة سنة ١٨١٢ م ثم توالت بعده البعثات الأثرية فاكتشفوا خمس كتابات من حماة نقلت إلى متحف الآستانة.

وعرف كركميش المستر سِكّان قنصل إنكلترة في حلب سنة ١٨٧٥ م وهي التي يسميها العرب الآن (جرابوليس) والترك (جرابيس) تحريف (هيرابوليس)، وساعد المستر سِكّان المستر جورج سميث الأثري الشهير بالآثار الآشورية.

وبحيرة قطيني تحريف كيتيني أي حثّي.

(١) الحثيون وتاريخ مملكة منسية، هو تاريخ الحثيين الذي طبع أولًا سنة ١٨٨٨ م باللغة الإنكليزية، وفيه أبحاث بديعة في اللغة الحثية وتاريخ شعب حثي. وكان مؤلفه أكثر أبحاثاً في هذا الصدد وهو الأستاذ أ. هـ. سايس A. H Sayce ولد سنة ١٨٤٦ م ودرس في كمبردج واكسفورد واشتهر باللغات القديمة والتاريخ القديم وحلّ بعضها، وعرف اللغة المسمارية (الشنغارية) والآشورية والعيلامية والهيروغليفية واللغات الأوروبية بعد اللاتينية واليونانية والبابلية. وله مؤلفات كثيرة في أديان القدماء وآثارهم وتواريخهم أهمها الحثيون. (المؤلف).

٦ - الأيطوريون

وهم قبيلة من سلالة أيطور بن اسمعيل بن إبراهيم الخليل أب الآباء (تكوين ٢٥:١٥) [نسبة إلى] أيطور الجبليّ، ومنها كلمة (طور) العربية بمعنى الجبل سمُّوا بذلك لاعتصامهم بجبل اللجاء وما يجاورهُ من السلاسل المنيعة في حوران وما إليها. ومن بقايا آثارهم في الأرض الحورانية مملكة (أيطورية) أو الجيدور وهي التي سمّاها اليونان (تراخونيت) بمعنى الصخر فكأنها ترجمة (أيطورية). ولقد كان العرب قد اتصلوا بلبنان مثل الأمراء التنوخيين، وذكر اليعقوبي في تاريخ البلدان: «إن لبنان مجاور لصيداء كان يسكنه قوم من قريش ومن أهل اليمن».

والأيطوريون هم أخوة النبطيون[1] من الممالك العربية التي جاوزت بلادها واتصلت بحوران وما إليه إلى لبنان، فنشأوا في حوران واللجاء وجاؤوا لبنان من الجبل الشرقي فامتدوا إلى الغربي على ساحل البحر وأنشأوا مستعمرة عظيمة هنالك، ولقد وصفتهم تواريخ اليونان والرومان وذكروا بأسهم وحذقهم في رمي السهام. ولقد اغتنموا فرصة اضطراب حبل السلوقيين خلف الاسكندر في أواخر القرن الثاني قبل المسيح، فامتدوا في لبنان إلى سواحله، ودفعتهم مطامعهم وبسالتهم إلى اختراق ما يجاورهم، وامتلاك لبنان وسواحل فينيقية على شاطئ البحر الرومي، وكانت سلطتهم على جنوبي دمشق وشرقيها[2].

واشتهر الأيطوريون عند الفتح الروماني.

واشتهر زعيم قبيلتهم وشيخها بطلميوس بن منايوس المثري الشهير قارون زمانه، الذي كان يحكم على بلد الأيطوريين[3] الأصلي، أي بلاد اللجاء، فبلغ من سطوته وشهرته، أن تولى لبنان الشمالي وسهل سورية المجوَّفة، أي البقاع وبعلبك، وحصّن كلشيس (عين الجر أو عنجر) عاصمته، وبلغ عدد فرسانه المدرّبين في القتال ثمانية آلاف، فحاربوا الرومانيين وغلبوهم، إلى أن أعاد هؤلاء عليهم الكرّة مراراً، فاستظهروا عليهم سنة ٢٠ ق. م. ولقد

(١) النبطيين.

(٢) راجع تسريح الأبصار للأب لامنس اليسوعي: ٣٩. (المؤلف).

(٣) ذكرت أيطورية في إنجيل لوقا ٣٠١ (المؤلف).

وجدت كتابات يونانية فيها أعلام عربية، تدل على هؤلاء الأيطوريين، ولا سيما في رأس الشقعة فوق البترون وفي جهات جبيل.

وأنجد الأيطوريون اخوتهم العبرانيين عند افتتاح أرض الميعاد. وكان هذا الشعب محنكاً في آداب الحرب، يُجيد الرمي بالنبال والإصابة بها لسكناهُ في الجبال الصخرية شرقي دمشق واحتكاكه مع المجاورين له. وديانتهم يرجّح أنها كانت أشبه بديانة جيرانهم النبطيين يعبدون الشمس والكواكب ولا سيما الزهرة وذا شرى Dusarés الذي يعتبرهُ المؤرخون كديونيسيوس[1] أو بخوس، وكثيراً ما ورد ذكره في الكتابات النبطية في حوران واللجاء.

ولقد حصّنوا عاصمتهم كلشيس (عنجر) وتوقلوا قمم لبنان الغربي وحصّنوها بالمعاقل وانحدروا إلى سواحل الشام، فأنشأوا لهم فيها دولة ثانية عاصمتها طرابلس، وطالما غزوا السواحل ولاسيما جبيل وبيروت، إذ وُجدت أسماء أيطورية في كتابات يونانية في المدينتين المذكورتين. والأرجح أنها سميت (عنجر) بعهدهم، وهي عبرانية بمعنى (عين الغريب) فكان الجيران رؤوهم غرباء نزلوا منها فقالوا ذلك.

وبقي أمر الأيطوريين على هذا الارتقاء مستفحلاً إلى أن فتح القائد الروماني الشهير بومبي سورية سنة ٢٠ قبل الميلاد[2]، فخضد شوكتهم وذلّل أعراف مجدهم وفتَّ في عضدهم، ففتك بملكهم ديونيسيوس وكينيراس في طرابلس في جبيل. وكانت ولايتهم ممتدة في الكورة والبترون وقسم من بلاد جبيل. وأسر بومبي قائدهم ديونيسيوس وفصل رأسه. وتوغل في لبنان، فأحرق حصون جيغرتا وسنّان وبوروما التي كانت معاقلهم المنيعة، وليس من السهل تعيين مواقع هذه الحصون، وإلا إذا كانت جيغرتا هي (زغرتا) الآن، ولكنها بعيدة عن عنجر، وسنان هي في سفح جبل صنين، وبوروما أما في برمّانا أو روميَة قربها، أو في الرومية في كسروان. ودمّر بومبي عاصمتهم كلشيس وخضد شوكتهم، وحوّل بلادهم إلى إقليم روماني، الحقوه بسورية. والمرجّح عند المحققين، أن قبيلة الأيطوريين، بادت أو امتزجت بالشعوب اللبنانية، واندغمت في سلائلهم فجهل أمرها وطمس اسمها.

(١) ديونيسيوس: هو اسم الإمبراطور باخوس باليونانية. (المؤلف).

(٢) الصواب أن فتح بومبي سورية حدث سنة ٦٤ ق.م كما ورد لاحقاً وليس سنة ٢٠ كما هو هنا في الأصل. (المحقق).

اليونانيون والرومان

حكم بعض القدماء هذه البلاد على استقلالها فكان حاكمها بزمن الرومان يسمى رئيس الرِبْع وهو لقب لأبناء الملوك ويراد به الحاكم على ربع المملكة. وفي الكتاب المقدس يُراد به من تولّى مقاطعة في المملكة الرومانية كبيرة كانت أو صغيرة.

١ – الأيطوريون أي الجبليون

آل ليسانيوس: إن أسرة ليسانيوس هذه اشتهرت في سورية المجوَّفة وأول من عرفناه منها بتولمايس بن مينا ذكره يوسيفوس في (تاريخ اليهود) وكان شيخ عرب تجول في أنحاء دمشق يسطو على أبناء السبيل نحو سنة ٨٥ ق. م.

ولقد أرسلت إليه اسكندرة أرملة اسكندر ملك اليهود ابنها أرسطوبولس ليصدّ غاراته على دمشق.

وبتولمايس هذا كان حاكماً على كلشيس أي عنجر لما فتح بومبي القائد الروماني سورية سنة ٦٤ ق. م فأبقاه على ولايته ولكنه صادرهُ بأموال كثيرة لأنه كان من كبار المثرين في عصره وتوفي نحو سنة (٤٠) ق. م.

وخلفه ابنه ليسانياس في ملكه ولكنه قتله سنة ٣٤ ق. م مرقس أنطونيوس بإغراء كليوبترة ملكة مصر.

(الرومان)

في عهد الرومان كانت سورية المجوفة مستقلة إماراتها إلى زمن سبيتموس ساويروس في آخر القرن الثاني للميلاد فكانت آسيا الرومانية في أيامه مقسومة إلى اثني عشر عملاً أو إقليماً. وكان العمل السابع منها قبرص وقصبتها بافوس (الباف) والثامن والتاسع سورية وعاصمتها أنطاكية. وكانت الندوة الرومانية تركت مدة ما بعض الأمريات قائمة بنفسها ينوب الحاكم فيها مناب الشعب الروماني ويخدم الحكومة بجباية الأموال الأميرية على أنها ضمت هذه الأمريات الصغيرة على التعاقب إلى إقليم سورية فضمت سورية الكومجانية

سنة ٧٢ وكلشيس (قنسرين أو عنجر) في أيام دوميتيانوس والأبلية (وقصبتها سوق وادي بردى) سنة ٤٨ وحمص في أيام فلافيانوس ودمشق وجمهورية تدمر سنة ١٠٦ عند أخذ العربية الحجرية. وكان العمل العاشر منها اليهودية وولاتها أشبه بنواب يرجعون في مهام أمورهم إلى ولاة سورية الخ. (دبس ٣:٥٨٤).

أما ساويروس لعل السويرة باسمه هذا فقسم سورية إلى قسمين الأول إلى الشمال ومنه سورية الكومجانية وسورية المجوفة أي السهول التي على ضفتي العاصي إلى أنطاكية والبحر وما بين اللكام ولبنان وأقام فيها فيلقين من الجند. والقسم الثاني في الجنوب والشرق وفيه سورية الفينيقية والشطوط البحرية وشرقي لبنان إلى وسط البرية ومنه بعلبك وحمص ودمشق وتدمر وفيها فيلق واحد من الجند. ونصب في القسم الأول ماريوس مكسيموس من أحسن قواد جيشه.

وله أبنية وإصلاحات وأنصاب للمسافات في الطرق وأبنية بعلبك.

قال ابن العبري[1] (في مختصر تاريخ الدول) صفحة ١٣٥، طبع بيروت: وبنى (يريد قسطنطين زوج الملكة هيلانة) بيعته بمدينة (بعلبك) وكان أهلها يتشاركون في النساء، ولم يخلص لأحدهم نسب فكفهم عن ذلك، فكفوا.

(العرب) لهم عادات أشار إليها هيرودوتس في تاريخه طبع بيروت الصفحة ٧ عند عقدهم عهداً واتخاذ الوسيط ثالث المتعاهدين بطريقة غريبة وينطق أحدهم بالدعاء إلى باخوس وأدراينا.... يعتقدون أنه لا إله إلا باخوس وأدراينا ويحلقون رؤوسهم لأنهم يزعمون أن باخوس كان يحلق رأسه، أي باستدارة وحول الأصداغ. ويسمون (باخس) أوروتال (أدراينا) أليلة – أوروتال بمعنى الشمس والنور ولعل (حورتعله) قرب بعلبك

---

(١) ابن العبري هو غريغوريوس أبو الفرج ١٢٢٦ – ١٢٨٦م، يعتبر آخر مؤلفي السريان وهو من أصول يهودية، اعتنق أبوه المسيحية، ودرس الطب والعلوم العقلية معتمداً المؤلفات العربية. بدأ حياته راهباً ورسم أسقفاً لمدينة جوباس من أعمال ملطية في آسيا الصغرى، ولكنه نُقل منها إلى أسقفية حلب وتكريت. له تصانيف كثيرة في علوم اللاهوت واللغة والفلسفة والطب والشعر السرياني، وله تاريخ عام يدعى مختصر الدول، استعان على كتابته بالمصادر العربية والفارسية، راجع: الأب لويس شيخو، مجلة المشرق، المجلد الأول، بيروت، ١٨٩٨ م (المحقّق).

تحريف هذا الاسم. وأليلة كأنها محرّفة عن الهلال وهو القمر أو لياليه وقد أبدلت تاء في خط الإفرنج.

يحسب المصريون الخنزير نجساً فلا يمسونه ومن مسه يغتسل.

ولا يسمح للرعاة الذين يرعون الخنازير، وإن كانوا مصريين أن يدخلوا الهياكل ولا أحد يزوج ابنته ولا يتزوج منهم، بل يتزوجون بعضهم من بعض.

ولا يؤذن للمصريين أن يذبحوا الخنازير إلا للقمر و(باخوس) وذلك في وقت واحد، أعني في يوم مخصوص من السنة، يكون فيه القمر بدراً، وحينئذٍ يأكلون من لحمه.

وفي يوم عيد (باخوس) يذبح كل واحد (خنّوصاً) أمام بابه وقت الغداء، ثم يعطونه للذي أتى به ليحمله من هناك. ويحتفلون ببقية عيد باخوس إلاّ فيما يخص تضحية الخنوص على نفس الطريقة تقريباً التي يجري عليها الأغارقة (اليونان)، ولكن عوض تماثيل فالوس (اسم يوناني مرادف لباخوس) (المنكرة لتهتكها اخترعوا صوراً علو الواحد نحو ذراع يحركونها بحبل والنساء يحملن الصور في القرى والدساكر... فيطفن به وهن يحركنه ويمشي أمامهن زمّار وهنّ وراءهُ يرتلن مدائح باخوس) (أ. هـ).

(باخوس واليونان)

وسمى اليونان باخوس إله الخمر والرومان دونيسيوس، وكثيراً ما يدعوه الرومانيون (ليبر) وهو ابن المشتري من سيميلي ابنة الملك قدموس. (راجع دائرة المعارف - البستانية كلمة باخوس ٣٥:٥). ويسمى باخوس عند اليونان فالوس، ولكن رسمه فاحش مكروه.

اقتبس الرومانيون من اليونان بعض العبادات والحفلات وأدخلوها بلادهم وشاعت منها عبادة ابولون.

أما (عبادة باخوس) اله الكرمة فبدأوا بها سراً وليلاً واخفوها عن الناس فحقق المجلس عن المنتظمين بتلك الجمعيات الباخوسية فكانوا سبعمائة شخص من رجال ونساء عرفوا الأسرار فقضي عليهم بالموت. وكانوا يصورون في مدنهم باخوس رب الكرمة يعصر عنقوداً.

وقد علّم باخوس الناس زراعة الكرمة وصناعة الخمر وجمع زمراً من العبدة[1] وعلى الخصوص النساء، وطاف بلداناً كثيرة حتى وصل إلى الهند أيضاً، راكباً في مركبة تجرها النمورة، وتلك الزمر محيطة به.

واختلف الناس في أخباره وكذلك العلماء في رواياتهم عنه، والأخبار عن ولادته متناقضة. وكذلك طرق عبادته كانت مختلفة باختلاف البلدان.

وقد صوّرهُ بعض المصريين بصورة حدث. ولكن اليونانيين كانوا يصوّرونه في الغالب بصورة صبي ظريف.

وأما في الشرق، فكانوا يصورونه بصورة رجل متوسط العمر، جليل المنظر، لابساً ثياباً طويلة. وأما أعياده والاحتفالات الدينية المقامة له في الأصل تراقة[2]، فصارت في إغريقية ورومية على غاية من الخشونة والقباحة، حتى صدر الأمر أخيراً بإبطالها من رومية.

وربما كانت في الأصل تقام إكراماً لقوة الطبيعة المثمرة المخصبة التي كان باخوس معبود الخمر لا محالة، مشخصاً لها. ومن القوى التي كانت تنسب إلى باخوس، قوة النبوة وشفاء بعض الأمراض وزيادة خصب الأرض. واشتهر من أعياده عند اليونان، ما كان يقام له وهو أهمها في أتيكة وأثينة. وكانت أربعة لا حاجة إلى ذكرها.

وأما الرومانيون فكانوا يقيمون تلك الأعياد مرة في كل ثلاث سنوات، ولكن الفظائع التي كانت تُرتكب فيها والخطر على الهيأة[3] الاجتماعية منها، حمل الحكومة الرومانية على الأمر بإبطالها من رومية وإيطالية وذلك سنة ١٨٦ ق. م. على أنه كان يقام احتفال يشبهها، إلا أنّه أكثر اعتدالاً منها في السادس عشر من آذار كل سنة. (أ. هـ) عن الدائرة بتلخيص.

ووجد في بوارج (البقاع) تمثال من حجر عادي ناتئ على صخر، يمثل شخصاً على رأسه قبعة مستطيلة، وأمامه ولد صغير يقدم له عنقوداً من العنب، وعليه طير وبجانبه كأس،

(١) كذا في الأصل على وزن فَعَلَة، والشائع في استعمالها على وزن فعيل. وعندها تصبح العبارة «من العبيد» (المحقّق).

(٢) كذا في الأصل والصواب في تراقية أو تراقيا (المحقّق).

(٣) الهيئة.

وهو رمز باخوس، وربما كان معاصراً لتمثال قب إلياس في رأس العين (أو ربما كان حثياً).

وفي نيحا حصن إلى الغرب الشمالي هو هيكل الإله هدرناس الكلداني، خربته الزلازل فتبعثرت حجارته الضخمة، وعلى كثير من تلك الحجارة نقوش من أغصان نخل وعنب ورسوم آلهة.

وعيد باخوس عند اليونان عبارة عن موسم خاص بالنساء فتسكر النساء فيه سكراً فاحشاً، ويتجولن في الشوارع عندهم كالوحوش الكاسرة. وفي ذلك اليوم تكثر الفحشاء بين القوم.

الفصل السابع

في عمرانها

أي زراعتها وصناعتها وتجارتها

أقدم ما اشتهرت به سورية المجوّفة الزراعة، والظاهر أن أقدم ما عُرف منها فيها (زرع الحبوب) (غرس الكرمة) و(الزيتون) والحبوب مشهورة بجميع أنواعها، وزينت جبالها المحدقة بها بأنواع الأشجار الصالحة أخشابها للصناعة، واشتهرت أيضاً بصنائعها وتجارتها، حتى إنها ذاعت صيتاً، وكانت محطاً لرحال العمران لخصب أرضها وكثرة مياهها.

وسبب عمران سورية المجوّفة أنهرها مثل: الليطاني والعاصي ويحفوفة وبردى، التي تروي أرضها وتزيد خصبها وتوصلها بأنهر سورية الداخلية ولا سيما الفرات ودجلة، وذلك يسهّل على القوافل سفرها ولاسيما ما كان منها بين العرب والفرس والآشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين، مما يحتاج إلى المياه لقطع المسافات الشاسعة والأبعاد السحيقة، فاستسهلوا هذه السهول بقوافلهم، ولبعدها عن قرصان في البحر وقطاع الطرق في الجبال، وذرعتها مراكبهم البرية ولا سيما الجِمَال، فصارت مسارح لها لا تكاد تترك نهراً حتى تلتقي بالثاني إلى الفرات.

زراعتها: صلحت أرضها منذ القديم للزراعة، فكانت هي المورد الأول لسكانها، يرتزقون منه، لأن الأودية في جميع البلدان، التي تروي الأنهر والجداول والينابيع أراضيها، تكون مصدر الخيرات الأرضية، فلذلك كانت هذه السهول مجالاً للحرث، يشقّ أرضها ويدرُّ على سكانها موارد زراعية كثيرة، مما أعدته لهم الطبيعة.

ومما عدّهُ البدري[١]... و[٢]... في محاسن الشام من الفواكه المنسوبة إلى بعلبك بجودتها (المشمس والقراصيا والكمثرى والتين).

---

(١) هو أبو بكر بن عبد الله، تقي الدين البدري (ت ٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م) وكتابه نزهة الأنام في محاسن الشام (المحقّق).

(٢) نزهة الأنام في محاسن الشام (المحقّق).

جاء في الحديث الشريف: (إن من غرس غرساً أو زرع زرعاً، فأكل منه إنسان أو طائر أو سبع، كان له صدقة)[1]. وجاء فيه أيضاً: (من غرس غرساً فأثمر، أعطاهُ الله بقدر ما يخرج من الثمر)[2].

وكانت معيشة الإنسان مقتصرة على حاصلات الطبيعة، ثم ارتاح إلى تربية الدواجن ورعاية الماشية، فأوصله ذلك إلى حرث الأرض وزرعها واستثمارها، مما كان يتطور بحسب الأزمنة والحاجات والمعايش، فكان سكان الفرات ودجلة والنيل، يشتغلون بالحراثة وخصبها وسكان جبال سورية، برعاية الماشية لكثرة الكلأ وحسن المرعى. وهكذا تدرّج الناس في معايشهم، واشتهرت الصين ومصر والكلدان في العراق بالزراعة قديماً. وفي نقوش المدافن المصرية القديمة صورة آلة أشبه بالمعول كانت محراثهم.

اشتغلت يد الصناعة مع الطبيعة في تحسين الأرض، غرست فيها الأشجار، فكان أقدم ما تأصل في تربتها غرس الكرمة لاتخاذ نتاجها لعبادة باخوس إله الخمر، ونصب الزيتون لاستعمال زيته في الإسراج بالهياكل القديمة.

زراعة الكرم منتشرة جداً في العالم، وهي في نصف الكرة الشرقي من ٥٤ (درجة) من العرض الشمالي إلى ٤٥ من العرض الجنوبي، إلا السواحل الشرقية والأمطار المتوسطة الباردة جداً من قارة آسية. والجهة الشرقية من القارة الأميركية أبرد من سواحلها الغربية، فربما كانت الدرجة ٤٥ من العرض الشمالي حد نمو الكرم منها.

وحيث تكثر الغيوم ورطوبة الهواء، لا يكون العنب موافقاً للخمر، فالهواء الجاف وصفاء الجو، يوافقان جداً عنب الخمر، وأوفق تربة لعنب النبيذ الخفيفة المتخلخلة الكلسية، والأراضي الكثيرة الحصى، موافقة لزرع الكرم، وإذا خلطت التربة بمواد ذات رائحة شديدة كريهة، فربما جاءت الخمر مؤثرة بها.

وقال الكتبي في فوات الوفيات: (١:٩١) في ترجمة الأمير تنكز سيف الدين نائب

---

(١) هذا الحديث عن أنس رضي الله عنه، رواه النسائي في صحيحه ٣/ ١١٨٨ رقم ١٥٥٢ (المحقّق).

(٢) كنز ٢٧: ٤٠٩، مجمع الزوائد ٤: ٦٨.

السلطنة في الشام، الذي ترك الشام سنة ٧٤٠ هـ (....م)[1]، إنه كان كثير الأملاك في دمشق وحمص وبيروت والبقاع وصفد ومصر وأكثر البلاد.

ثم قال في صفحة ٩٥: «كان له في البقاع مرج الصفا قوّم بسبعمائة ألف درهم، والتل الأخضر مائة ألف وثمانون ألف درهم، والمباركة خمسة وسبعون ألف درهم والمسعودية مائة ألف وعشرون ألف درهم، والضياع الثلاثة[2] المعروفة بالجوهري أربعمائة ألف درهم وسبعون، والسعادة أربعمائة ألف درهم، وأبروطيا ستون ألف درهم، ونصف تبرو والصالحية والحوانيت أربعمائة ألف درهم، والناصرية[3] مائة ألف درهم» (أ. هـ.).

وقال ابن الفقيه في كتاب (البلدان) صفحة ١١٧: تفاح لبنان[4] العسل: ومن غلال هذه البقعة (العسل). قال ابن الجوزي في سيرة عمر بن عبد العزيز، طبع مصر، ص ١٥٨: «قال عمر بن عبد العزيز[5]: وددت أن عندي عسلاً من عسل (سنير)[6] أو (لبنان). فسمعت فاطمة بنت عبد الملك، فحملت بعض غلمانها أو بعض مواليها إلى ابن معدي كرب، وهو عامل ذلك المكان، فأرسل إليه بعسل كثير. فلما علم أنها بعثت، فاستجلبه باعهُ وتهدّد العامل».

وقال ابن الجوزي أيضاً صفحة ١٥٩ من السيرة ذاتها: «ولما اشتهى (عمر بن عبد العزيز) من العسل ووجّه رجل على دابة من البريد إلى بعلبك، فاشترى له بدينارين عسلاً، فعلم بذلك فباعَهُ، لأنه كان لا يحمل على البريد إلاّ في حاجة المسلمين».

---

(١) بياض في الأصل والموافق سنة ١٣٣٩م (المحقِّق).

(٢) الصواب: الثلاث.

(٣) ربما كانت الناصرية لولد الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي المسمّى محمد والملقب ناصر الدين (المؤلف).

(٤) لم يذكر سيرة تفاح لبنان بشيء (المحقق).

(٥) هو الخليفة الأموي الذي وصفه بعض المؤرخين بأنه الراشدي الخامس بعد الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، اشتهر بعدله ورده المظالم على أصحابها، أوقف عمليات التوسع للجيوش الإسلامية، وأعاد الجنود إلى منازلهم، وفتح حواراً مع الجماعات والفرق، ولم يستمر حكمه أكثر من عامين. ويقال إنه توفي مسموماً سنة ١٠١ هـ/ ٧١٩ م في دير سمعان من أعمال حمص مما يلي بلاد قنسرين. راجع المسعودي، **مروج الذهب**، ج٤، ص ١٦ (المحقّق).

(٦) هو نفسه جبل الشيخ أو حرمون. (المحقق).

ومما اشتهرت به هذه البقعة في الزراعة وامتازت، أن في بعلبك يخصب الشعير عموماً والحنطة تخصب في عرسال ولا سيما الأبيض المشرقاني، والعدس في دورس، والحمّص في النبي شيت والذرة في اللبوة.

وفي البقاع، الحمّص في القرعون.

فالمصريون بلغوا أقصى درجات عظمتهم من أفلح أيام زراعتهم.

(المصريون والخمر والدوالي)

كان الملك المصري إذا عاد غانماً من حرب أعدائه يقدم أشياء كثيرة للآلهة شكراً على فوزه، فلما ظفر رعمسيس الثالث بحروبه، قدم القرابين الكثيرة منها ٢٣٩٦ قنينة من العنب. (سكان وادي النيل، صفحة ٩٦).

وكان المصريون يشربون الخمر على الطعام في أقداح غير عميقة رجالاً ونساءً وكانوا يدعمون الجنان (أي قضبان الكرم) بعصي ذوات شعب وكانت تمتد أحياناً من أول جانب البستان إلى آخره. ومما أبانته الآثار أنه كان قرب الكرم بركة أو حوض وكانت [القرى] تجني العناقيد. وكانوا يعصرون العنب بوضعه في أكياس يضغطونها أو بوطئهم إياه بالأقدام وكانوا يسكرون كما ظهر من رسم على أحد قبور بني حسان فإن هنالك صورة سكران يُحمل من الوليمة إلى بيته. (أ. هـ.)

(سكان وادي النيل صفحة ١٢٤)

(الخمر في مصر): وجد العالم مرييت في هيكل سمنه (تانيس المصرية) صفيحة نقش في أعلاها ثلاث صور: (١) الإله شات وبيده الصولجان وعلى رأسه التاج. (٢) رعمسيس الثاني واقفاً أمامه باسطاً يديه نحوه وفي كل منهما كأس خمر. (٣) صورة الذي أقام هذه الصفيحة ساجداً، وعليها كتابة هيروغليفية معربها:

«في سنة أربعمائة أقام رعمسيس هذه الصفيحة إكراماً للإله شات (شت الحثي) وإجلالاً لاسم أبي آبائه. وهو يحيي شات تحيات إله سام ويستمد منه التوفيق والإقبال في أيامه والثبات في حكمه»، واتخذ الإله شات أربعمائة سنة إلهاً سامياً في مصر مثل رع

وأمنون. ولذلك اتخذ اسم شات (أو شتخ) معبود الحثيين إلهاً سامياً في مصر ومنه سيتي اسم بعض الفراعنة تبركاً. (الدبس ٢٣٥)

من آثار تدمر: يوجد رسم ديونيسيوس (باخوس) إله الخمر وهو نائم تكلّله أغصان الكرمة.

قال هيرودوت أبو التاريخ اليوناني: ليس من قطر عرفنا يشابه (كلديا) بخصب الحبوب المزروعة فيه (إلا الشجرة كالكرمة والزيتون والتين).

في مرشد الطالبين صفحة ٥٣٨ من العبارات المجازية في الكتاب (الخمر) (١) البركات الزمنية (هو ٢:٨) (٢) قوت الإنجيل (اش ٥٥:١) (٣) (السخط الإلهي) (رد ١٦:١٩) (العنب) كناية عن فضائل الديانة (اش ٥:٢) (العنب الرديء) للأخلاق الملتوية (أ. ش. ٥:٢).

وفي مرشد الطالبين صفحة ٢٥٣ - من أمثال المسيح وأماكن النطق بها (العفلة في الكرم) (في اليهودية) (مت ٢٠:١ - ١٦) - الكرم (في اليهودية) (مت ٢١:٣٣ - ٤٦).

وفي مرشد الطالبين صفحة ٥٤٤ العبارات المجازية (الكرمة) (١) الكنيسة العبرانية (مز ٨٠:٨) (٢) المسيح رئيس الكهنة (يو ١٥:١) والكرم كناية عن كنيسة إسرائيل (اش ٥:١) (وفي تاريخ سورية للدبس ٢:١٦٠).

في الجواسيس الذين أرسلوا ليرتادوا أرض كنعان لليهود القادمين من مصر:

«وقد أتم الجواسيس تطوافهم في أربعين يوماً وأتوا حبرون وهي الخليل الآن وقال الكتاب إنها بنيت قبل صوعن مصر (وهي تانيس القديمة وصان الآن) بسبع سنين. وقطف الجواسيس من ثم (زرجونة بعنقود واحد من العنب)، وحملوه بعتلة بين اثنين مع شيء من الرمان والتين فسمي الموضع (وادي العنقود) وجاؤوا موسى في قادش (برية فاران) وأراد الجماعة ثمر الأرض وقالوا إن الأرض تدر بالحقيقة لبناً وعسلاً وهذا ثمرها...الخ).

فمن الكرم الحصرم والعنب والخمر والخل والدبس والورق والزرجون والزبيب وأشكال العنب عندنا المقساس (المقَسيْس) والمرويح والشكال وخدود البنات والتفيفيحي والعبيدي والدرملي (منه الزبيب) وفي دمشق البيتموني والزيني والدوماني.

Bachos (صور باخوس) إله الخمر والطرب

١- باخوس: يصور واقفاً بين جفنتين (داليتين) عاليتين يقطف عنبهما ويضعه في حجره.

٢- يمثل باخوس بشاب على رأسه إكليل من اللبلاب أو أغصان الكرمة - يمثل بولد لأن السكيرين كالأولاد في صغر العقول - ويمثل عرياناً لأن السكارى يفشون الأسرار وبيده كأس خمر - وطيره العقعق.

٣- صوره القدماء بهيأة[1] شاب طلق المحيا أشقر الشعر جالس مرة على برميل وأخرى على عربة تجرها فهود ونمور وعلى رأسه إكليل من الدالية وشجر اللبلاب وبيده حربة وطير العقعق.

٤- هو ديونيس عند الرومان يمثل بصورة شاب على رأسه إكليل من اللبلاب أو أغصان الكرمة وبولد سكران وعريان. وموضعه بثيبة وهيكله العظيم في بعلبك فلذلك زرعوا أفخر الكروم في هذه الجهة.

٥- ومن الصور التي رمزها العنب (ميترا) وهي عشتروت (الزهرة) عند الفرس أصلها أشورية. وكانت عبادة سرية دموية وهي بمعنى قمر أو شمس، ولها تمثال في متحف بعلبك ووجد هيكلها في صيدا. وتمثال بمتحف المجمع بدمشق ومترا اللوفر في باريس لها تمثال يشخص رجلاً راكباً على الثور يطعنه بسكين ليضحي به. والكلب يلغ في دمه. والحية ممددة تحت الثور وأمام مترا إلى اليمين رجل بيده اليسرى عنقود عنب وباليمين مشعل مرفوع وأمامه إلى اليسار رجل آخر بيده مشعل مرفوع وفوقه في الوسط ثلاث شجرات وإلى اليمين مركبة برأسي خيل أمامها ولد وإلى اليسار مركبة بأربعة رؤوس خيل وأمامها ولد وفي كل عربة حوذي يسوقه تلك هي مترا اللوفر النفيسة.

٦- ديونيس كان يحمل رمحاً مكتنفاً بأغصان العاشق وأوراقها (الأب مرتين. ص ٣٢٠).

٧- في متحف بعلبك (مجلة الآثار ٣:٦٦) من مقالة مخايل أفندي ألوف (تمثال نصفي

(١) بهيئة.

للشمس) وجه تمثال الشمس مهشم. هاتان الصورتان تمثلان الشمس بهيأة[1] شاب بلا لحية ذي شعر مشعث مرسلٍ من وراء رأسه أشعةً إلى كل ناحية وهو مرتد على كتفه الأيسر بوشاح روماني معقود بعروة على كتفه الأيمن العاري. ولعل الشمس ممثلة هنا بصورة ميترا الفارسية والتي عبدها اليونان والرومان على هذا المثال تقريباً.

٨- وفي مجلة الآثار (٣: ٣٦٠ و٣٦١). ففي صفحة ٣٦٠ (بقية جرن حمام) وقطعة إفريز منقوشة أغصاناً وزهوراً نقشاً جميلاً - قطعة جرن حمام صغيرة طولها ٢٥ سنتيمتراً بعلو ٢٠ وهي بهيئة مستديرة الشكل مكسورة قطعتين الآن. وقد كانت في بناء قديم مثل حجر خام (دبشة) لا أهمية لها وهي منقوشة نقشاً دقيقاً جميلاً ناتئاً (نافراً) يمثل عريشتين من عنب متعرشة كل واحدة منهما إلى جهة معاكسة تجاه العريشة الأخرى. وفي وسط العريشة الواحدة رجل عارٍ من اللباس وعورته بادية يحمل في يده اليمنى المبسوطة شبه طاسة وعلى كتفه الأيسر وشاح يتدلى إلى جانبه وفي يده قرب الوشاح عصا راعٍ، وفي وسط العريشة الثانية بقية صورة رجل على زنده وشاح يلاعبه الهواء. وفي يده المرفوعة إناء أظنه مبخرة. وعلى العريشتين عناقيد من العنب بينها طيور تنقد حبها وبأسفل العريشة حشرة ندعوها بالجندب (القبوط) وداخل هذه القطعة مقعّر، ومن ذلك استدللت أنه كان جرناً لحمام روماني فخيم.

وفي صفحة ٣٦١ من (الآثار، مجلد ٣)

(بلاطة حجرية أخرى تمثل النصف العلوي في امرأة ذات هيبة وجمال وهي تحمل على رأسها غطاء يتدلى على صدرها وعلى جبينها فوق شعرها المرسل إلى الجانبين عصابة منقوشة كالتصوير وعلى العصابة من كل جانب صور أربعة أحجار كريمة وفي آذانها قرطان متدليان وبعنقها عقد يمثل حب اللؤلؤ كمثل حب الحمص الصغير وتحته عقد آخر واسطة عقده هلال وتحتهما على الصدر عقد ثالث من سلسلة محبوكة وهي لابسة ثوباً منقوشاً وبيدها اليسرى على صدرها يظهر منها في المعصم سوار ثخين مجدول وفي بنصرها خاتمان والجانب الأيمن من هذه الصورة مكسور ولكن إلى جانبها الأيسر صورة ولد بحجم صغير

(١) بهيئة أيضاً.

أو هو واقف وعلى رأسه طاقية منقوشة وعلى جسمه قميص منقوش نازل إلى ركبه وهو لابس سروالاً وفي يده اليمنى (عنقود عنب)، وعلى يده اليسرى عصفور وبينه وبين أمه كتابة تدمرية).

(الإتجار بالخمر)

تاريخ سوريا للدبس (١٤٥:٤).

وقال كاتب الجغرافية في منتصف القرن الرابع «يكثر جداً في سورية الغلال من الحبوب والخمر والزيت».

وقد توافر إرسال خمر دمشق إلى بلاد فارس وخمر اللاذقية وعسقلان وغزة إلى مصر ثم إلى بلاد الحبشة والهند.

وكان الرومانيون يقدرون خمر جبيل وصور وغزة حق قدره.

ووضع زرادشت[١] (أعظم مشرّعي الهند) لفن الزراعة صفة مقدسة.

والرومان اعتنوا بالزراعة حتى إن كثيراً من أمرائهم وقوّادهم ورؤسائهم دُعوا من وراء المحراث لأزمة الأحكام، أو مقاتلة الأعداء بسيوف الظفر. حتى إن سنسنا...[٢] استودع محراثه، لمس الحاجة لمقاتلة الأعداء، واستولى على إمارة الجيش، وبعد أن ظفر ارتاح إلى معاودة محراثه. وقاطون ذاعت شهرته بقيادة الجيوش وحسن السياسة والخطابة، ولم يكن ذلك أشهر من اسمه في تأليف كتابه في فن الزراعة، وزادت شهرتهم بها مع الأيام والإتقان.

وألف وادرن في الزراعة قبل المسيح بثمانين سنة. وماريوس الحرّاث تقلّد الأمرة الكبرى سبع مرار، وكانت خبرته وبراعته في الزراعة، قد أوصلته إلى ذلك.

قال بلينوس عنه: «وكان يعرّش الدوالي في كرمه بمهارة تدل على تضلعه بحسن إيقاع الحركات الحربية وتنظيم الجيوش». وكان بومبي يناظر بنفسه حراثة أرضه. ولما اتسع

---

(١) ت. ٥٨٣ ق. م، نبي الفرس الأقدمين ومصلح ديانتهم الأولى. من أتباعه الأخمينيون والساسانيون (المحقق).

(٢) بياض في الأصل.

فتوحهم، أهملوا الزراعة ومالوا إلى اللهو، فتأخروا كما قال المؤرخ الإنكليزي غبون[١]، (....)[٢]. والعرب في أسبانية أتقنوا الزراعة وأنشأوا السدود، ففاقت بهم اسبانية كل أوروبة زراعة كما فاقتها بغيرها.

وبلغ الدخل السنوي لممتلكاتهم في اسبانية ثلاثين مليون ريال في القرن العاشر للميلاد. قال غبون: وكان هذا الدخل أكثر من مجموع دخل كل الملوك المسيحيين، ولم يزل أكثر آثارهم الزراعية باقياً مشهوداً. وبعد خروج العرب من اسبانية، انحطت زراعتهم، كما كانت في أوربة[٣]، إلى أن نهضت الزراعة في القرن السادس عشر للمسيح، فهبوا من رقدتهم، وأتقنوا هذا الفن واستثماره، ولا سيما باتقان (الكيمياء الزراعية)، وممن اشتهر بهذا في أوائل القرن التاسع عشر ليبغ الإنكليزي وبوسينيو الفرنسي.

(الفينيقيون والكرمة)

قال لانرمان: لم يكن للفينيقيين أرض كافية لتحصيل قُوتهم بالزراعة، فأكبوا على الملاحة والتجارة والصناعة، ومع هذا، جادوا كثيراً استثمار ما كان لهم من الأرض. فقد توفرت في جوانب صور وصيدا وبيروت وجبيل كروم العنب، فكانوا يعصرون منها ومن عنب لبنان خمرهم، التي طارت شهرتها، حتى كان يرغب فيها في رومة في أيامها، وفي بلاد اليونان، وبارتها في الشهرة خمرة حلب. (سورية للدبس ٣٤٧:١) و(في تسريح الأبصار ٧٦:١). كانت فينيقية في القرن الرابع عشر قبل المسيح مشهورة بالزراعة والفلاحة، وكان

---

(١) اتسعت فتوحاتهم (المحقق). وغبون له كتاب في سبعة مجلدات باللغة الإنكليزية في سقوط دولة روما، أقتنيته في مكتبتي وطالعته مراراً (المؤلف).

(٢) بياض في الأصل، وغبون كما يسميه المؤلف هو إدوارد جيبون، وهو مؤرخ انكليزي شهير. وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية محمد سليم سالم في مصر في ثلاثة مجلدات، تحت عنوان «سقوط واضمحلال الامبراطورية الرومانية». ويتضمن الجزء الأخير كشافاً للأجزاء الثلاثة التي تنتهي بظهور الإسلام واضمحلال الامبراطورية في الشرق، وكذلك الحروب الصليبية ونهاية الامبراطورية الرومانية بعد سقوط القسطنطينية في العام ١٤٥٣ م ودور رومة في العصور الوسطى وفجر النهضة. وقد صدر الكتاب عن الهيئة المصرية العامة للترجمة في عدة طبعات (المحقِّق).

(٣) أورروبة.

الزيت (والخمر) من جملة ما يقدمه الفينيقيون لملوك مصر لوفاء الجزية، ولعل الخمر اللبناني اشتهر من ذلك الحين قبل ما يذكره (هوشع النبي) في سفر نبوته. (التسريح للامنس ١٧:٢).

قال الشاعر نونّس اليوناني: إن الطريق التي يسير فيها السائر عند خروجه من بيروت إلى صيدا هي رملية تظللها الأشجار (ودوالي الكروم). (التسريح ٢٧:٢).

استبدل الرومان المعابد الفينيقية الصغرى بهياكل فخمة، وكان لهذه الهياكل أرزاقها وغاباتها المقدسة وأوقافها (وكرومها). (تسريح ٢٨:٢).

وكان الرومان مكلفين بغرس الكروم، فرغّبوا الأهلين بفلاحتها، حتى اشتهرت أصناف الخمور اللبنانية في العالم الروماني، وعُرفت بالخمور البيروتية (كما ذكر بلينيوس).

ينمو الكرم ويخصب ويتكاثر بالنقل والبزور والترقيد والتطعيم. والخل يؤخذ من النبيذ المحمّض. الحِصرم العنب قبل نضجه.

استقطار الخمور: إن أحسن الخمور تستقطر في كسارة (دير اليسوعيين) وهي أرض ابتاعها المرسلون ثم تركوا قسماً منها، أو تعنايل وفي (شتورة).

أما في كسارة، فقد غرس اليسوعيون الجفنة الإفرنجية، وهي غير متعرشة، فنجحت وجاءت بغلة وافرة. وتستقطر أحسن الخمور التي تباع معظمها في ألمانية وغيرها من أقطار أوربة[1]، وهو يفضل على غيره للتقديس في الكنائس لنظافته.

وفي كرك نوح اشتغل فيلكس شفالييه، وفي شتورة بنو بولاد والمسيو برون الفرنسي.

الكرمة وتاريخها[2]

من نقُب الرجل على القوم صار نقيباً ومقدماً عليهم يعتني بشؤونهم. فنقابة الكرمة هي

(١) أوروبة.

(٢) محاضرة أُلقيت في جمعية (نقابة الكرمة) في زحلة باقتراح أعضائها في حفلة اقامتها (النقابة) سنة ١٩٤٤.

المعتنية بهذه الغرسة الجميلة القديمة المفيدة، أحسن الله سعيها وكأفاها خيراً على ما تبذله من الاهتمام بفن الزراعة المفيد الذي أقول فيه:

بزراعة وصناعة وتجارة تجد البلاد تقدماً وفلاحا
أسباب عمران فشيد صرحها واخذ العلوم لنيلها مفتاحا

فعلينا واجب كبير في معاضدتها لتنمية هذه الغراس والانتفاع بها، وتعزيز شؤونها، وتكثير أنواعها، وحُسن القيام عليها بعناية الحكومة الجليلة.

(فالكرمة) أول ما عُرف عنها في سفر التكوين (٩:٢٠) أن غارسها هو (نوح)، فاستقطر منها الخمر، واشتهر كثيرون بهذا، فتنبأ يعقوب قبل موته بأن يهوذا يشتهر بتربية الكرم، ونرى سليمان الحكيم في أمثاله يندّد على من يدمن الخمرة إلى غير ذلك، مما يدل على قدمها.

واشتهرت أشجار الكرمة أو غرسها في جبال آسية الصغرى الشرقية. ولكن بلادنا السورية والفلسطينية، كانت لهما المزايا الرفيعة، باختيار أحسن أنواعها وإتقان زراعتها منذ القديم، والمحافظة عليها وحسن استثمارها، والتفنن في غرسها فسائل وأشجاراً وعرائش، وقضبها (تنقيتها)، وعمل كل ما يعزز شؤنها[1] ويحسّن نتاجها، حتى كانت مهنة الكرّام متميزة عن مهنة الفلاّح والزراع.

ومن أسماء الكرمة: الجفنة والدالية والعريشة. ومن حاصلاتها: الخمر والدبس والعرق.

وكأني بكلمة (كرمة) مقتطعة هكذا (فالكاف) من الكد بغرسها و(الراء) من ريعها الخصيب و(الميم) من المؤونة التي تنتج منها فـ(التاء) من تقديسها. فالأمم القديمة امتهنت الزراعة، مما تدل عليه الآثار في كل قطر والهياكل.

وقد ذكرتها الكتب المقدسة مراراً في الأسفار القديمة والجديدة، فقيل في الإنجيل: (أنا الكرمة وأنتم الأغصان). وضربت بها الأمثال مراراً. واستعمل خمر الكرمة في التقديسات وفي عقد الزواج، ونحو ذلك عند المسيحيين.

(١) شؤونها.

وثمر الكرمة العنب وهو طري، فإذا جفّ فهو الزبيب. وله أنواع وأشكال مختلفة، حيث تنمو في التربة الخصيبة في سورية وفلسطين، فكانت ألوانه ما بين أبيض وأحمر وأسود وغيرها. فاشتهرت القرى في حسن أصنافه، وطيب أثماره، وكثرة إنتاج حاصلاته، مما لا محل الآن لتعدادها في القطرين المذكورين، بل نشير إلى بعضها. فعندنا أسماء تدل عليها مثل وادي العرايش ووادي الكرم وكفردَبَش (والدبش بالعبرانية بمعنى الدبس)، وسرغايا بمعنى قضبان الكرم، وحمّارة بمعنى المخمرة، أي محل استقطار الخمرة وحفظها. وقرية العنب في فلسطين المعروفة اليوم بقرية أبي الغوش وغيرها.

وزراعة الكرمة منتشرة جداً في العالم، وهي في نصف الكرة الشرقي من الدرجة الرابعة والخمسين من العرض الشمالي إلى درجة الخامسة والأربعين من العرض الجنوبي. وحيث تكثر الغيوم ورطوبة الهواء، لا يكون العنب موافقاً لاستقطار الخمر منه، ولكن الهواء الجاف وصفاء الجو، يوافقان جداً عنب الخمر. وأوفق تربة لعنب النبيذ، التربة الخفيفة المتخلخلة الكلسية. والأراضي الكثيرة الحصى، موافقة لزرع الكرم. وإذا خلطت التربة بمواد ذات رائحة شديدة كريهة، فربما جاءت الخمر مؤثرة بها.

وفي فن الزراعة الحديث ما يفيدها ويفيد ما ينتج غيرها.

وأقدم دالية كرم في العالم، موجودة في ولاية كاليفورنية من أميركة الشمالية. فقد زرعت منذ أجيال كثيرة، فبلغ حجم جذعها قدماً ونصف، وعلوه ثمانية أقدام، فهي تنشر أغصانها وأوراقها على مساحة خمسة آلاف قدم مربعة، وتغل سنوياً ثلاثة أطنان من العنب.

والعنب أسهل الأثمار هضماً، وهو مليّن ومقوٍ للجسم والعقل، يفيد في أمراض الزلال والقلب، والأسود منه أفضل من غيره، لأنه يشتمل على الحديد.

ويقول الكرّامون إنهم يفضلون غرس الكروم على غيرها، لأنها تفيد في علاج الأمراض كما مرّ بعنبها. ولوفرة غلتها، ولسهولة فلاحة أرضها، لأن الدوالي تدار من جهة إلى أخرى لتسهيل الحرث، ولحفظ العناقيد، وهي طريقهم القديمة.

ولكن توجد طرق حديثة في فن الزراعة، يجب الاعتماد عليها لتوفير الغلة، وتحسين

العنب واستغلاله، وهو أصناف كثيرة معروفة الأسماء عندنا، يصلح بعضها لاستقطار الخمر والآخر للدبس وغيرها للزبيب، إلى غير ذلك مما ستعتني به النقابة.

واشتهرت بيروت قديماً بكروم العنب، التي كانت تكسو رباها بثوب أخضر بديع، كما ذكر الرحالة والشعراء، ووصفوا عنبها اللذيذ، وخمرتها الطيبة، حتى قال الشاعر العربي مشيراً إلى الاتجار بها كما قال بلينوس:

سبيئة من قرى بيروت صافية   عذراء قد سبيت من أرض بيسانِ[1]

ولا سيما في عهد الرومان الذين اعتنوا بالزراعة والري والاستثمار.

ولما كان هيكل باخوس الشهير في قلعة بعلبك قديماً، اعتنى الأهلون في وادي سورية المجوّفة (كيلسيريا) بغرس الكرمة وإتقانها واستخراج الخمور منها، لتكريم باخوس في أعياده، فكانوا يضعون الخمور في زق من الجلد، ويحملونه إلى مذبحه، ويصبونه عليه، إيفاءً لنذورهم التي يفرضونها استشفاءً من الأمراض واستشفاعاً به.

ولهذا كانت هذه البقاع كلها مغارس لأطيب أنواع العنب اللذيذة والصالحة لاستقطار الخمور منها، كما فصّلت ذلك في كتابي (تاريخ سورية المجوّفة)، أي بلاد البقاع وبعلبك وما يتصل بها، المخطط في نحو ألفي صفحة بقطع كبير وحجم ضخم.

وأرجّح أن اسم بعلبك مأخوذ من كلمة (بعل باكوس) لشهرته وعظمته، كما تدل أطلاله الباقية ونقوشه الرائعة، وفيها رسوم الكرمة وعناقيدها الناتئة في شعوفه الداخلية بغاية

(١) مع أن الشائع أن هذا البيت هو لعمر بن أبي ربيعة، إلا أن صاحب الأغاني ينسبه في موضعين إلى عبد الرحمن بن سيحان بن أرطأة وهو شاعر أموي مُقِلّ، وهو في أبيات قالها بعد إقامة الحد عليه لشربه الخمر، فأخذ عندما يشرب يبيت لدى جليسه الوليد بن عثمان خوفاً من ظهوره سكراناً فيقام الحد عليه ثانية. وهذه الأبيات يخاطب بها زوجته قائلاً:

لا تعدميني نديماً ماجداً أنفاً   لا قائلاً خالطاً زوراً ببهتان
سبيئة من قرى بيروت صافية   عذراء قد سبيت من أرض بيسان
إنّا لنشربها حتى تميل بنا   كما تمايل وسنان بوسنان

راجع: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج ١، ص ١٩١ و١٩٣ (المحقّق).

الإتقان، فكانت عناقيد العنب رموز باخوس، وأقيمت له حفلات رائعة عند اليونان والرومان وكثير من الأمم، وعندنا في سورية المجوّفة ودمشق. وكان في بعضها تهتك تأباه الإنسانية، فأبطلها الرومان من رومية وإيطالية سنة ١٨٦ قبل المسيح، ثم كانوا يقيمون له حفلات أكثر اعتدالاً منها في السادس عشر من شهر آذار كل سنة بعد ذلك.

[وباخوس] يوناني بمعنى إله الخمر والطرب، والرومان سمّت ديونيسيوس، وكثيراً ما يدعونه (ليبر) وهو ابن المشتري (جوبتير) من سيميلي ابنة الملك قدموس.

وفي أساطيرهم، أنه علّم الناس زراعة الكرم وصناعة الخمر، واختلفوا في أخباره، وصوّرهُ بعض المصورين بصورة حَدَث، ولكن اليونانيين يصوّررنه بشكل صبيّ جميل، والشرقيون يصورونه بشكل رجل متوسط العمر، جليل المنظر، لابساً ثياباً طويلة.

ومن تماثيله عندنا، ما وجد في بوارج (البقاع)، وهو تمثال حجري عادي ناتئ على صخر يمثل شخصاً على رأسه قبعة مستطيلة، وأمامه ولد صغير، يقدم له عنقود عنب، وعليه طير، وبجانبه كأس، وهو رمز باخوس.

وفي بلدة نيحا (البقاع)، حصن إلى الغرب الشمالي، هو هيكل الإله هدرناس الكلداني، خربته الزلازل، فبعثرت حجارته الضخمة، وعلى كثير منها نقوش من أغصان نخل وعنب ورسوم آلهة.

ومن أسماء القرى عندنا (لوسا) في البقاع، ويرجّح أنها تحريف (نوسا) وهي قرية باخوس. و(حُرتعلة) وهي تحريف (أوروتال) الآرامية، بمعنى (النور المتعالي) وهو باخوس إله الشمس. و(كفردينس) تحريف ديونيس. ولعل قرية كفردان بهذا المعنى و(جسر دير زينون) تحريف (ذيّون) أي ذيونيس إله الخمر، مما يدل [على] أن هذا الدير كان هيكلاً له، إلى غير ذلك مما لا تحتمله هذه العجالة من الأدلة.

ولقد ذكر أوميرس[1] وغيره الكرمة، وكذلك شعراء العرب عندنا، مما لا محل لتفصيله، فقلت في ذلك أصف غراس الكرمة وثمارها:

---

(١) هوميروس.

قــد زرت كــرمــاً مخصبــاً فيــه العناقيـد النـفـائـس
فــأرى الـدوالــي كـالــدوالي والـعـرائــش كالـعـرائـس
مــنـظــومــة حــبــاتــهــا كــالــدرّ فــي عــنــق الأوانــس
أشــجــارهــا الـخــضــراء قد لـبـسـت أمـانـيـن الأطـالـس

الكرمة: كانت الكروم في فلسطين مصوّنة بسياجات أو محاطة بقنوات للوقاية من الوحوش. وكانت الشريعة تأذن لغير صاحب الكرم والحقل أن يأكل عنباً من كرم غيره وفريكاً من حقله، إنما كانت تمنع عليه أن يحمل شيئاً إلى بيته، بل إلى خارج الحقل والكرم. (تث ٢٣:٢٤ و٢٥).

وكان للفقراء حق الاقتطان[1]، فكان يترك لهم شيء قصداً. (لا ١٩:٩ و١٠ تث ١٩:٢٤).

(اطلب بستان محراث دَرَس كرم وقت الخ).

(قاموس الكتاب ١٦٨:٢) وتقام أبراج لنواطير الكروم.

وقال أشعيا (٧:٢٤) مشخصاً للحزن: (ناح المكا وذبلت الكرمة إن كل مسروري القلوب). ولما أراد زكريا أن يهنئ بقدوم أيام السعد قال: (الكرم يعطي ثمره).

(زك ١٢:٨، قابل حب ١٧:٣ وملي ١١:٣).

(الفيلاكسين) أي دودة الكرم: ظهرت في سورية سنة ١٨٥٣، ولا سيما في جبل القلمون، وبقيت إلى سنة ١٨٦٠ وأخذت تخف. (عن كتاب مخطوط في دير الطوف بزحلة).

استقطار الخمر (صفحة)٥٤٢ من هذا الكتاب[2].

---

(١) الاقتطان هو ترك جزء يسير من المحصول ثمراً أو زروعاً عمداً ليلتقطها الفقراء والمارّة، ويسميه البقاعيون العفارة ومنها التعفير، ويتم دوماً بعد قطف المواسم من قبل مالكيها حيث تترك بعض الزراعات والأثمار المتفرقة للعابرين والمعفّرين، وهو يرتبط باعتقادات قديمة وبظروف الحياة الزراعية (المحقِّق).

(٢) انظر الكرمة وتاريخها (المحقق).

صناعتها

من قديم صناعات هذه البلاد (البناء) وكفى بقلعة بعلبك والهياكل الأخرى شاهداً على مهارات سكانها منذ القديم ومنها (عمل الفخار) و(نسج الحصر)[1] و(استقطار الخمور) و(عمل الملبَّن) ولا سيما في الفرزل كما ذكر ياقوت، وفي بعلبك كما ذكر ابن بطوطة الرحالة صفحة...[2] والبشاري في (....)[3] صفحة ١٨١ قال:...[4] ومن بعلبك الملابن و(عمل الملاعق).

ذكرابن بطوطة: «ويصنع ببعلبك (الثياب) المنسوبة إليها من الإحرام وغيره، ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد. وهم يسمون الصحاف بالدسوك وربما صنعوا الصحفة، وصنعوا صحفة أخرى تتسع في جوفها وأخرى في جوفها إلى أن يبلغوا العشرة يخيّل لرائيها أنها صحفة واحدة. وكذلك (الملاعق) يصنعون منها عشرة[5]، واحدة في جوف واحدة، ويصنعون لها غشاءً من جلد، ويمسكها الرجل في حزامه، فإذا حضر طعاماً مع أصحابه، أخرج ذلك، فيظن رائيه أنها ملعقة واحدة، ثم يخرج من جوفها تسعاً». (أ. هـ).

واشتهرت في التاريخ ثياب القطن البعلبكي.

الفخار: بما أن تربة البقاع صالحة للفخار، فلا بدَّ أنه كان معروفاً منذ القديم فن عمل الفخار، لأن كثيراً من الأواني الخزفية والفخارية تظهر في الأرض مدفونة.

(١) ومن صناعتها الحالية ضفر أشهر الحصر في خيارة والسلطان يعقوب. وأشهر نسج البسط في لالا وكذلك الواديات والآن أهملت وانتقلت إلى القرى. والدباغة ودق البارود في مشغرة والبارود في عيتنيت (المؤلِّف).

(٢) بياض في الأصل.

(٣) بياض في الأصل.

(٤) بياض في الأصل

(٥) عشراً.

وأهم محل يصنع فيه الفخار قرية عيثا، حتى إنها نسبت إليه، فقيل لها عيثا الفخّار.

والمشهورون من اليوم بصناعة الفخار في عيثا ثلاث أسر، بنو الغَرِيْب من سوق الغرب أو بتغرين وبنو الحصان من الحصن وبنو القسّيس يقال[1] إنهم من عين التينة قرب معلولا، ومنهم البعض في عين الشعراء (وربما أنهما ليسا بأنسباء).

وطريقهم في اصطناع الفخار أنهم يتخذون تراباً صالحاً له من سفح الجبل قرب عيثا، بعضه لونه أحمر وبعضه أبيض فيصولونه (ينقّونه بالماء منقوعاً) ويمزجونه حتى يصحّ عمله، ويجبلونهُ ثم يركّبون الطين المفروك جيداً على الدولاب.

الفخار في عيثا[2]

إن هذه الصنعة قديمة العهد في هذه البلاد، حتى لا أحد من الذين يشتغلون بها يتذكر أن أباه أو جدّه تداول في ابتدائها. ومما يدل على قديم عهدها، الأواني والقطع التي توجد في أساسات البيوت والقساطل التي تسحب الماء وقطع سميكة مركبة من ثلاث صفائح: الخارجية سوداء والوسطى حمراء والداخلية زيتية الشكل، وهي ولا شك طلاء يستعمل لكي لا ترشف ما يكون بداخلها من المائع. وفي عيثا كثيراً ما يوجد الفخار، وهي نسبة أنه يعمل فيها فخار كثيراً ما يوجد من الأواني المملؤة[3] من الحنطة السوداء تحت الأرض. وكذلك بينما ينبشوا[4] في هذه البلدة عين ماء وجدوا أنها ممتدة من هذه العين إلى بلدة قديمة العهد تسمى المهدومة، أما اسمها الحقيقي فلا يعلمه أحد، وسميت المهدومة لخرابها، ولا أحد يعلم عنها شيئاً، وهذا مما يدل على قديم عهد الصناعة...

لا يعمل فخار في قضاء البقاع وراشيا وبعلبك وحاصبيا، وعلى ما أظن في ولاية الشام [إلا] في موضعين في عيثا الفخار وراشيا الفخار. أما كيفية استعماله فهي يوجد له تراب

(١) راجع في خزائن دمشق للزيات (بنو القسيس والخوري) في عين التينة قرب معلولا. (المؤلف).

(٢) ١٠ حزيران ١٩٢١ (المؤلف).

(٣) المملوءة.

(٤) ينبشون.

مخصوص مركّب من جزءين، تراب أحمر وتراب أبيض، ولم يعلم لحد الآن هذا التراب إلا في ثلاثة مواضع في المحلين المذكورين وفي (مزرعة دير العشاير) يستخرج هذا التراب من تحت الأرض، حيث يحفر حفراً عميقة تحت الأرض حتى يوجد، وربما لا يوجد في أول حفرة، فيحفر غيرها، وكثيراً ما تخرج المياه عن وجه هذا التراب، فتمنع العَمَلة عن الحفر، ويضطرون لحفر غيرها.

ومرة بينما الحفاون[1] يحفرون، إذ وجدوا فراغاً، وفي هذا الفراغ بقايا إنسان و(أركيلة) وإناءً لدعك (النفس)، مما يدل على أنه كان من الذين يشتغلوا[2] بالفخار، فسقطت عليه تلك الحفر ومات.

يؤخذ هذا التراب إلى محل فيه ماء، ويجفف يومين أو أكثر، ثم يوضع في حفرة صغيرة أُعدت له ويعوّم بالماء ويحرّك بواسطة آلة تسمى المجرفة، وهي أكبر من المجرفة الاعتيادية المسماة (صبّة)، وعندما يذوب هذا التراب بالماء، يفتح له مخرج من تلك الحفرة المسماة (بالجرن)، فيخرج ويمر بقناة ضيقة وضع فيها (بلاّن) لتصفيتها، ومن ثم تنزل إلى حفرة كبيرة تسمى (ثقلاية) والمواد الباقية منه وتسمى (...)[3] توضع على سطوح البيوت، بحيث لو نزل الشتاء لما (دلفت) (رشحت)، وتبقى تلك المواد المصفاة في الثقلاية إلى أن تصير جافة قليلاً، فتؤخذ إلى المعمل، وهناك يوجد صنّاع يحركونها بحيث ينقونها من الحصى التي قد توجد فيها. أما المعلم، أي الذي يشتغل الجرر وغيرها فيها، له آلة وهي عبارة عن خشبة رقيقة، لها دولابان، في كل طرف دولاب وتوضع أو يوضع لها أسيار، كما يوضع للباب، فيجلس المعلم على كرسي ويحرك الدولاب الأول برجله ويضع (الطين) على الدولاب الأعلى وهو أصغر من الأولى ويشتغله مهندساً إياه كما نراه، وهكذا طوال مدة الصيف، بحيث يشتغل كل يوم شيئاً من الجرر والخوابي.

أما (الطنور) [التنور] الذي يخبز عليه، فهو يعمل على الأرض، وذلك بواسطة المخباط

(١) هكذا في الأصل والصواب الحفارون.

(٢) يشتغلون.

(٣) بياض في الأصل.

والكفة، أما المخباط، فهي لوحة سميكة لها مسكة لتمسك، يضرب بها من الخارج، والكفة قطعة خشب تشبه (الترس) يضرب بها من الداخل فيرق الطين وهكذا. ولا يفتكر أن هذه الواسطة صعبة، ثم تجفف هذه الأناة وتنقل إلى الأتون، وهو عبارة عن غرفة طابقين، لها منافذ بين الطابقين، فتوضع في الطابق الأعلى، ويشعل في الطابق الأسفل وهو يسمى (السفل)، ويوضع أيضاً حجارة بيضاء في وسط (السفل) فتصير (كلساً)، وبعد يومين تخرج من الأتون، بحيث تكون كما نراها.

أما النار التي توقد للأتون الواحد، فهي عبارة عن خمسين حملاً من الحطب، وبعد إشعالها، يضعون عليها تراب مبلول، بحيث تطفأ تلك النيران فتصير فحماً، المعروف بفحم الأتون أو (النقصة)، وهو سريع الاشتعال، شديد الحرارة.

أما أسماء القطع التي تعمل فهي: (وصلية) وهي خابية كبيرة، وطنور وجرة وخضاضة التي للسمن، وزلعة وهي لكبس المونة وغورية ومحلوب وتقلاية ومقلى لقلي البيضات وقدرة للطبخ، ومسمنة وهي مثل الجرة الصغيرة ذات باب واسع قصير وهي لحفظ اللحم المجفف وإبريق وكوز، وهو مثل الإبريق ولكنه أصغر، ودورق وكرازة (دورق صغير) وصرصور مثل محلوب وكيلة وهما للشرب وفنجان وغير ذلك من الأشياء الخصوصية، كشربة وإبريق مسحور وكوز قطع الخيط).

أما الإبريق المسحور، فهو يُملأ من أسفله ثم يقلب، فلا يسقط ماء أزومته أي زلومته. ويطلى الفخار من الداخل بطلاء مركب من رصاص وبعض مواد لا أعرفها، ومن الخارج بطلاء أحمر يسمى (مغرة) وهو تراب أحمر يستخرج من قرب الأراضي الموجودة فيها تراب الفخار، يمزج بالماء وينقش (يزخرف) بها الفخار، وبينما هو يشوى، إذا لم يكتفي[1] ناراً، ينكسر حالاً، بحيث لو وضع فيه ماء يوم أو يومين لانكسر، وإن زادت النار عليه فينكسر في وسط الأتون.

ولمعرفة اكتفائه، يقف إنسان على ظهر الأتون ويرمي ذرة من الرصاص المذكور، ثم بعد عشرة[2] ثوان، إذا ذاب الرصاص، يكون قد اكتفى، وإلا زيد الإيقاد تحته.

(١) يكتفِ بحذف حرف العلة.

(٢) عشر.

وبيدٍ حديدية تسمّى (غبّون) يمشق الطين، فيد العامل من الداخل، والغبّون التي هي مقبض (مسكة) مثل الكف من الخارج حتى يتساوى سماكة، ويشتغلون من الخوابي الكبار والصغار، ومنها نوع يسمى دغار (يتغار) للمعاصر والدباغة وجميع الأدوات.

وينقشون بالتربة الحمراء التي هي المغرة بعد جفاف الأدوات قليلاً بالشمس، ثم يعيدونها إلى الظلّ حتى لا تتفسّخ، والنساء ترقش الأواني بالمغرة ثم يشوى بالأمّاتين (جمع أتُّون) [مثل أتاتين اللاحقة لهذه الكلمة]، وفي أراضيها أتاتين قديمة وبقايا فخار، تدل على قدم الصناعة فيها.

ويجلبون من حماة وحلب وحمص المرسنك (المردسنك) الأصفر والأخضر، يدهنون به الأواني بعد سحقه وتذويبه بالماء، وذلك قبل شيّه، ثم يشوى ويتخذ للظرف به.

وتربة عيثا تصلح للقرميد أيضاً لو تيسّرت إنشاء معامل فيها له.

وكانت معاملها الفخّارية قديماً عشرة معامل، فصارت اليوم خمسة، وتقل بكثرة المهاجرة لانصراف الناس عن صناعتهم، كما هو الحال في كثير من أعمال بلادنا. وفي كل معمل عشرة فعلة، وكان دخل كل معمل نحو خمسين ألف غرش في السنة. على أن من مؤخرات الصناعة قلة الحطب أيضاً للشي.

ويوجد مكارية تحمله على الحمير بواسطة شبكة مصنوعة من حبال القنب الرفيع المسمى (المرص)، ويذهبون به إلى المحلات المجاورة والبعيدة، بحيث يبيعوه بأسعار باهظة.

تجارتها

بعد أن عرفت مكانة هذه السهول من الزراعة والصناعة، لا يسوغ أن تجهل مكانتها من التجارة، فإن كونها عاصمة الوثنية من زمن قديم، ومحل استفحال العبادات القديمة والعصبيات الدينية، وجودة موقعها في قلب البلاد، وخصب الأرض المحدقة بها، ووفرة الحاصلات الناتجة من أرضها على اختلاف أنواعها من حبوب وثمار وحطب وغِلال وأشباه ذلك، كل هذه الذرائع الطبيعية، جعلت موقعها بين طرق المدن الكبيرة في أنحاء سورية وفلسطين والعراق تجارياً، فنمت تجارتها منذ القديم.

ولقد ساعد على ذلك، كونها مجال القوافل، ومحط رحال النَّقَلَة ومباءَة الزوّار. حتى

إن المسافر إليها من أمهات المدن القديمة العامرة مثل طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا في الخط الساحلي، ودمشق وحمص ومعلولا ويبرود في الخط الجبلي، لا يتكلف إلى قطع أكثر من يومين يطويها إليها. فلهذا كثر ازدحام الأقدام فيها، واشتدت الأسفار إليها، وعظم تقاطر التجار إلى نواحيها، يصبُّون فيها مصادر تجارتهم، ويستقون من ينابيعها موارد أشغالهم، فطرق أرضها الفينيقيون أسياد التجارة في العالم، واتخذتها الأمم الشرقية طريقاً للتجارة بين مدنها وبلدانها في وادي العاصي وعلى ضفاف دجلة والفرات، ومن مدن الثغور البحرية التي كان التجار والأجانب يقصدونها ناقلين إليها تجارتهم وآخذين منها صادراتها.

ولذلك ترى بعلبك وسهولها والبقاع وبطحاءَهُ مجاري العراق ومجالات التجوّل حتى في السكة الحديدية الحديثة. فكانت تجارة الشمال عند الفينيقيين، بيد السوريين، فقوافلهم تخترق هذا السهل إلى حمص فالعراق بلاد آشور حيث نينوى العظيمة، فيتلقى الفينيقيون هناك بضائع بلادهم ويبيعونها ويبعثون إلى بلادهم بضائع آشور وحاصلاتها المتقنة مثل: الزجاج الملون الشفّاف والظليل والتطريز والمموهة بالذهب والفضة وغيرهما، والحجارة الكريمة المصقولة والمنقوشات، أو تتصل ببابل فتنقل منها بضائع تلك البلاد النفيسة، مثل الأنسجة القطنية والصوفية والحلى والرياش والعطور والحجارة الكريمة.

وعلى هذا التمهيد، كان تمهيد الطرق منها وإليها لازماً لتسهيل النقل في تلك العصور الخالية التي لم يكن فيها بادئ ذي بدء إلاّ قوافل الجمال ومحتشد الحمير والبغال وأسراب الخيل وأشباهها أسباب اتصال وآلات نقل، ثم عُرفت العجلات، فمُهدت لها الطرق ورُصفت، ولا سيما في زمن الرومانيين، وآثار هذه الطرق القديمة والحديثة[1]، لا تزال

(١) كانت السكك القديمة متينة الرصف كثيرة الكلس والرمل جيدة الوضع، وكانت الطرق الرومانية عبارة عن مرتفع من الحضيض، رصفت فيه صفائح من الحجر البركاني أو الحجارة الأخرى المشهورة بصلابتها. وهي من ثلاث طبقات: السفلى من الرمل والحصباء وأشباههما، والوسطى من دقيق الحجارة المجبولة بالكلس، والعليا بسمك نحو ١٥ سنتمتراً من كَسِر الخَزَف والآجرّ الممزوج بالملاط الشديد. وعلى جانبي الطرق رصيف أو مسلك للسابلة (Trottoire) مرتفع قليلاً عنها وفي طرفيه حجارة ضخمة. وعلى مسافات معلومة من هذه الطرق، مواقف للجند ومخافر وخانات واصطبلات للخيل ومحطات للبُرُد والحمّام والقوافل. والنُّصُب الحجرية الدالة على المسافات، وفيها أسماء مُنشئي الطرق. (المؤلف).

ظاهرة إلى الآن أطلالها، ماثلة للعيان بقاياها، وكفى بمضيق نهر الكلب (دربند) القديم، برهاناً على معبر التجارة والسفر من ذلك المنفرج الصغير إلى لبنان و[الطرق][1] الداخلية.

الطريق من جبيل إلى بعلبك: وهي تمرُّ في لبنان إلى أن تصل قرية العاقورة في صروده (جرودهِ) ثم تتشعب بين جبلين فتصل إلى بركة اليمونة، ومنها تسير إلى بعلبك، وقد شاهدت بأم عيني بقايا هذه الطريق بين شليفة واليّمونة وأنا صغير السن، وهي مرصوفة كأنها مسبوكة من حجر واحد، وهي أقدم عهداً من الرومان، ولعلها من آثار الفينيقيين، ولكن الرومان رمّموها.

ويستفاد من كتابة باسم دوميطانس قيصر في آخر القرن الأول للميلاد، وُجدت عند محلة (درّاجة القديس سمعان) في تلك الجهات. وقيل إن تلك الكتابات تدلّ على تخوم أراضي لا على ترميم الطريق، لصعوبة السير في هذه المنحدرات والشواهق العظيمة.

الطريق من صور إلى بعلبك: يقال إن الطريق التي هي أسهل من غيرها لنقل الحجارة وأساطين الأعمدة في القديم من الحجر ولاسيما الأصوانية من مصر، لم تنقل إلاّ على هذه الطريق، مارة قرب مشغرة أو في فتحة أخرى من البقاع، وهي طريق التجارة البحرية أيضاً.

وكانت الأشياء الضخمة تنقل على عجلات تجرّها الأبقار. ولكن هناك عقبات صعبة، فلعلهم كانوا يحملونها من شرقي حاصبيا إلى تحت راشيا والمحيدثة، فتحت كامد اللوز وهي أسهل طريق من جهة غربي البقاع وقال البشاري في صفحة ١٩١:

«وتأخذ من جب يوسف إلى قرية العيون مرحلتين ثم إلى القَرْعون مرحلة ثم إلى عين الجرّ مرحلة ثم إلى بعلبك مرحلة، وهذا يسمى طريق المدارج».

الطريق من حمص إلى بعلبك: اكتشف ما يدلُّ على هذه الطريق صديقنا الأثري مخايل أفندي موسى ألوف البعلبكي في أرض (تلة الدير) شرقي قرية جبّولة الواقعة شمالي محطة اللبوة على مسافة عشرين دقيقة منها، حيث آثار قديمة لاتينية تدل [على][2] أن الإمبراطور كلور قسطنطيوس وشريكه في الملك غالاريوس مكسيميانوس نحو سنة ٣٠٥ للميلاد رقّما

---

(١) زيادة لاستقامة المعنى.

(٢) زيادة لاستقامة المعنى.

هذه الطريق، وأن ذلك النصب الذي عليه الكتابة، هو الميل السابع عشر من مدينة بعلبك (هليوبولس)، الملقبة باسم (جوليا أوغسطا).

ولا يبعد أن يكون لهذه الطريق شعبة إلى طرابلس.

قال البشاري صفحة ١٩٠: «وتأخذ من حمص إلى جوسية مرحلة ثم إلى يَعَاث مرحلة ثم إلى بعلبك نصف مرحلة ثم إلى الزبداني مرحلة ثم إلى دمشق مرحلة».

الطريق من دمشق وغيرها إلى البقاع بعلبك: ولها منفذان، إما أن تسير في وادي يحفوفة قرب رياق، وإما أن تسير في وادي الحرير ووادي القرن قرب مجدل عنجر. وقد ذكر الارشدياكون بولس ابن الزعيم في رحلة والده المخطوطة أن والده البطريرك مكاريوس طاف في أبرشيته، فترك دمشق في ١٦ تموز سنة ١٦٤٧، فبات في قرية ديماس، ثم ذهب إلى عيتا ثم إلى قرعون (قارعون) ومنها إلى مشغرة فكفريت فصيدا.

الطريق من صنين إلى سورية المجوّفة: تمر في منفرج الجبل فوق مدينة زحلة أي بين جبلي الكنيسة أو بوارش وبين صنين.

الطريق من بيروت إلى سورية المجوّفة: تمر في المديرج والمريجات بين جبلي الكنيسة وعين دارة، وهنا في أسفل المريجات قرب السهل قرية مكسة، وهي شاهد على تمكيس البضائع، أي أخذ رسم عليها منذ القديم.

الطريق من جبل الأرز وبشري إلى بعلبك: تمر في قرية عيناتة قرب اليمونة متصلة بالسهل.

وذكر رينان في بعثة فينيقية أنه عثر في المحل المسمى درجة مار سمعان في الطريق من العاقورة إلى اليمونة [على لوحة][1] كتب فيها اسم العاهل (دومسيان أغوسطوس) فكأنه مهد أو فتح هذا الطريق، وهو سبيل الغزاة إلى سورية في الجبل، كما كان طريق نهر الكلب في الساحل، وربما هذه الطريق تمر بأفقا، وتنحدر في وادي نهر إبراهيم إلى أن تبلغ جبيل. (دبس ٣:٣٠٩).

الطريق من مشغرة إلى البقاع وبعلبك: الطريق من مشغرة إلى جزين يمر على تومات

---

(١) زيادة لاستقامة المعنى.

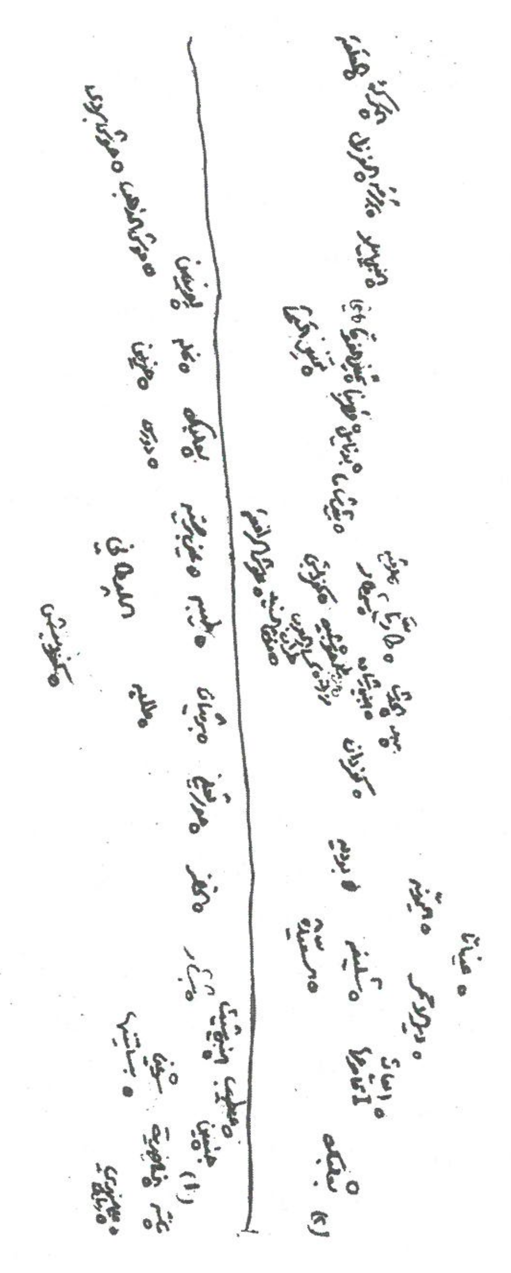
نيحا، والطريق إلى صيدا على وادي السنديان على جزين ثم على صيدا، فتذهب من مشغرة إلى عين التينة ومنها إلى وادي السنديان، ثم إلى دير المزيرعة ثم إلى كفرحونة ثم إلى مزرعة بيرعدُّون فصيدا.

السكة الحديدية: تمر من أعالي جبل الكنيسة آتية من بيروت، فتنحدر إلى المريجات ومنها إلى جديتا فسعدنايل فمعلقة زحلة ثم إلى رياق، وهناك محطة كبيرة لخطين أحدهما قليل العرض إلى دمشق فتمر[1]... والثاني عريض إلى بعلبك واللبوة والراس و(هاتان المحطتان بعيدتان عن القريتين) فالقصير ثم يرى عن شماله نهر العاصي وبحيرة قطينة ثم حمص.

(١) هكذا في الأصل.

الطريق من إهدن إلى بعلبك في القرن السابع عشر





خريطة للمنطقة الممتدة من بعلبك ورياق حتى المعلقة وحوش بردى

قرأت في التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية المخطوطة، وهي سنة ١١١٢هـ[1] ما نصه عن عودة مؤلفها العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي[2] من طرابلس إلى دمشق ماراً ببلاد بعلبك.

قال في صعوده من إهدن: «... حتى صعدنا على جبل عالٍ طويل عريض يتصل بجبل لبنان، ثم هبطنا إلى دارٍ هناك، ثم لم نزل نصعد في جبال عالية المسالك ونهبط في أودية كذلك، حتى لاحت لنا من أعلى الجبل مدينة بعلبك، فاستبشرنا بالارتياح وبلوغ النجاة والنجاح، ورأينا عند هذا الجبل مرجة خضراء وروضة خضراء، فنزلنا عندها وقت الظهر بالتيمم قصداً لنيل القرب، حيث لم يكن معنا غير حصة من ماء لأجل الشرب، وبيننا وبين الماء مقدار ميلين والوقت قبيل الظهر، ثم إننا بعد صلاة الظهر، نزلنا من هذا الجبل واسمه المسقيّة، وسرنا ماشين، حيث لا يمكن الركوب لأحد من البرية، نمشي ونهبط في ذيل هذا الجبل الطويل إلى وقت الأصيل، فعند ذلك رأينا الماء خارجاً من تحت صخرة عظيمة، ينساب منها في جدول بلا تمادي، ثم ينحدر أحدهما في ذيل الجبل والآخر في الوادي. وماؤه في غاية البرودة والصفاء والعذوبة لارتواء الحادي، ولم نزل سائرين بين هذين الجدولين، حتى وصلنا إلى قرية عيناتا[3]، فنزلنا عندها، وأكلنا ما يسّر الله تعالى وشربنا من مائها العذب، وقلنا، في ذلك بعون الملك المتعال:

---

(١) الموافق سنة ١٧٠٠ م.

(٢) هو عبد الغني بن إسماعيل النابلسي ت ١١٤٣ هـ/ ١٧٣١ م، تتلمذ على يديه أجيال من العلماء والفقهاء، عالم بالدين والأدب، مكثر في التصنيف، متصوف، ولد ونشأ في دمشق ورحل إلى بغداد، وعاد إلى سورية، فتنقل في فلسطين ولبنان، وسافر إلى مصر والحجاز، واستقر في دمشق وتوفي فيها. له مصنفات كثيرة منها: الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية ونفحات الأزهار على نسمات الأسحار وحلة الذهب الإبريز في الرحلة إلى بعلبك والبقاع العزيز والحقيقة والمجاز في رحلة الشام والحجاز والرحلة الحجازية والرياض الأنسية وديوان الدواوين وخمس مجموعات مخطوطة فيها ٣٢ رسالة، ذكر الزيات أسماءها في خزائن الكتب وقد أُحصي له ٢٣٢ مصنفاً. سلك الدرر للمرادي ٣٠:٣ والجبرتي ١٥٤:١ وخزائن الكتب للزيات، ص. ٣٩،٤٢،٥٢، ٥٨، ومعجم المطبوعات ليوسف اليان سركيس والخزانة التيمورية ٢٩٨:٣، والأعلام للزركلي ٣٢:٤ - ٣٣ وغيرها، وحققت العديد من مؤلفاته ونشرت (المحقِّق).

(٣) المؤلِّف ذكرها سابقاً عيناثا، وترد لاحقاً بالتاء أو الثاء في الأصل (المحقّق).

إن عيناتا ماؤها العذب صافٍ ....[1]

وأكلنا الطعام ثم شربنا الماء، حتى كأننا ما أكلنا، وبتنا بها في ليلة باردة كأنها الزمهرير، ولا بدع من ذلك، فإن أهلها نصارى. وجبل عيناثا مغطى بالثلج الكثير، فلما رأينا ذلك، جمعنا الحطب، وأوقدنا النيران، وبتنا تحت خيمة السماء المبطنة بالدخان، ولم نزل كذلك، حتى لاح الصباح، وذهب الليل الحالك، فصلينا الصبح، وهو صبح يوم الاثنين، اليوم الـ ٣٦ من رحلتنا المباركة بقرب زوال...[2] إيعات، فأكلنا ما يسّر الله تعالى وسرنا في وعر طويل، وهبطنا في وادٍ مستطيل، ولم نزل كذلك نجدّ في السير، إلى أن وصلنا إلى قرية إيعات، فنزلنا هناك قبيل الظهر على غير ميعاد، وأكلنا ما يسّر الله تعالى لنا من الأطعمة الطيبة، والزاد والأعناب اللطيفة، وزال عنا كل خيفة، وصلينا الظهر بالجماعة، وحصلنا على الحبور والطاعة، ثم إننا أرسلنا إلى مدينة بعلبك المحمية إلى نسيبنا مفخر الأكارم...[3] السيد أحمد أفندي الأيوبي القاضي بمدينة بعلبك المحروسة، ذات الأماكن المأنوسة، وكان مرادنا التوجه إلى حضرته، والتملي بطلعته حتى جاءَهُ الخبر، بادر حفظه الله تعالى، وخرج إلى ملاقاتنا، ووصل إلى قرية إيعات، فكأننا كنا على ميعاد، فذهب بنا وسرنا إلى أن وصلنا إلى بعلبك المعمورة، التي هي إن شاء الله تعالى بالخيرات مغمورة، فأنزلنا في منزله الشريف، ومحله الذي هو دار الحكم المنيف، فدخلنا إلى ذلك المكان، ووجدنا نزهة الأعيان، وتحفة الزمان، فيه بيوت كثيرة، ومياه غزيرة، وفيه مقعد لطيف، عليه عريشة الأعناب، وأمامه إيوان يسحر الألباب، وبينهما بركة ماء مثمنة كبيرة بأحجار مجوّفة متلاصقة مستديرة، وفي وسطها كأس من الرخام، فجلسنا في ذلك المقعد اللطيف، والمكان المتنزه المنيف إلى عشيرة الدار، فقدم لنا أنواع الأطعمة النفيسة... ثم... أقبل علينا أطروفة الزمان ونادرة الوقت والأوان، جامع أشتات الفضائل، وحائز قصب السبق في مضمار البلاغة، الفائق بها الأواخر والأوائل صديقنا الشيخ عبد الرحمن التاجي الخطيب بالمدينة المذكورة... وجرت بيننا

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) هكذا في الأصل.

وبينه أبحاث علمية ولطائف أدبية، وأنشدنا من منطقه الفصيح أشعاراً رقيقة، ولما ذكرنا له مرورنا على الجبل المتصل بجبل لبنان، المسمى بالمستيّة وبياتنا في عيناثا في تلك الليلة الزمهريرية قال هذين البيتين:

بيني وبين أبي علي مثله شم الجبال ومثلهن رجاء
وعقاب لبنان وكيف قطعتها زمن الشتاء وصيفهن شتاء

[وصف النابلسي قلعة بعلبك ورأس العين]

ولما لاح يوم الثلاثاء اليوم (٣٧) توجهنا إلى القلعة العجيبة وتلك الأبنية الغريبة، فرأيناها معه عجائب الزمان، وبدائل الأكوان، ومن أعجب ما رأينا فيها طوافاً من الأحجار العظيمة، وهو مخروم مجوف مركب فوق العواميد، يتصل بجدار داخل القلعة، وكل قطر من هذا الطواف يبلغ أربعة أذرع، وعرضه ثلاثة أذرع.

ومن الأعاجيب أيضاً، العواميد المحيطة بالمكان الذي في الوسط، التي عليها هذا الطواف المذكور، فإن كل عامود[١] منها غلظة يحوط به أربعة رجال، وطوله علو المنارة الرفيعة، وكل عامود[٢] ثلاث قطع غير الذي هو مدفون تحت الأرض التي تسمى القاعدة، وكل قطعة منها وسطها مجوّف، داخلها عامود[٣] من نحاس، وفي القطعة السفلى عامود[٤] من نحاس أو حديد، موضوع عليه القطعة العليا، قيل إن بعضهم أخرج منها عامود[٥]، فبلغ وزنه خمسة عشر رطلاً بالأرطال الشامية، وعدد هذه العواميد المحيطة بداخل القلعة الموضوع فوقها هذا الطواف المذكور ستة وثلاثون عموداً، أربعة عشر في الجهة القبلية، وأربعة عشر في الجهة الشمالية، وستة عواميد في الجهة الغربية وفي الجهة الشرقية عمودان،

(١) الصواب: عمود.
(٢) الصواب: عمود.
(٣) الصواب: عمود.
(٤) الصواب: عمود.
(٥) الصواب: عموداً.

كل عامود[١] منها مشرف ممتد من أوله إلى آخره، وأمام هذين العامودين[٢] في هذه الجهة قطعة عامودين[٣] مقابلة للعامودين[٤] المذكورين.

والظاهر أنه كان عاموداً[٥] طويلاً، وكان بجانبه عامود[٦] آخر، مقابل هذين العامودين[٧] المذكورين، وكان بينهما الباب.

وفي هذه الجهة التي فيها هذان العامودان[٨] المذكوران، باب صغير مرتفع، يصعد إليه بسلّم حجر، يدخل به إلى هذا الذي في وسط القلعة، فصعدنا ودخلنا إليه، فوجدناه يشتمل داخله على اثنين وعشرين عموداً، كل عامود[٩] مشرف من أوله إلى آخره، كالعامودين[١٠] المذكورين اللذين في الخارج.

وفي هذا المكان أيضاً عضادتان (عضاضتان)[١١] عظيمتان بينهما الباب، وبكل واحدة من هاتين العضادتين درج مدوّر يسمونه اللولب، وهو مثل درج المنارة، يصعد منه إلى سطح هذا المكان، وعدد كل درج منه سبعون درجة، يتصل إلى هذا الدرج من طاقة صغيرة في أسفله لا يمكن الصعود إليه إلاّ منها، ولا يمكن لكل أحد أن يدخل منها إلاّ إذا كان نحيفاً أو صغيراً، والطاقة التي في إحدى العضادتين مسدودة لا يمكن الصعود إلى هذا الدرج لذلك.

وأخبرنا بأنه كان قديماً في أسفل كل عضادة باب يدخل منه ويصعد إلى هذا الدرج، لكن لما تهدم أعلى هذا المكان ووقع إلى أسفل، انسدَّ البابان وانطم نحو من عشرين درجة،

(١) الصواب: عمود.
(٢) الصواب: عمودين.
(٣) الصواب: عمودين.
(٤) الصواب: للعمودين.
(٥) الصواب: عموداً.
(٦) الصواب: عمود.
(٧) الصواب: عمودين.
(٨) الصواب: العمودين.
(٩) الصواب: عمود.
(١٠) الصواب: كالعمودين.
(١١) الصواب كما كتبها المؤلف بداية بالدال وليس بالضاد كما كتبها لاحقاً (المحقِّق).

وصارت تحت الأرض، فعلى هذا يكون عدد الدرج تسعين درجة، وهذا أيضاً من العجائب. (أ. هـ).

ثم خرجنا من هذه القلعة، وقد كان دعانا صديقنا زين الأحباب، وروضة الفضائل والآداب الشيخ عبد الرحمن التاجي المتقدم ذكره، والعابق في هذه الرحلة المباركة نشره، فسرنا إلى منزله الرحيب ومكانه الخصيب، فتلقانا بالتوقير والاحترام، وأكرمنا بأنواع الإكرام. ثم بعد أن صلينا الظهر، ذهبنا إلى (رأس العين) ذات المحاسن السنية، وقد دعانا إليها مفخر الأعيان مصطفى بشة ابن[1] يوسف الشهير بضيائي فتنزهنا بمرآها الحسن، وابتهجنا بجداول مياهها التي هي مجلى الحزن، فقلت في هذا المقام الأنيس، والمحل البديع النفيس:

دعانا لرأس العين ذوي العلى   وعين ذوي الإكرام من غير ما مَيْنِ
فقمنا لرأس العين نمشي كرامة   وشوقاً لرؤياهُ على الرأس والعين

وهذه العين ماؤها غزير جداً، يجري منها نهر لطيف يدخل إلى البلدة ويجري منها أيضاً جدولان، أحدهما يدخل في فناء جامع بالقرب من هذه العين، والجدول الآخر يجري مرتفعاً وهو داخل أيضاً إلى البلدة. وفي هذا المكان وهو (رأس العين) مقعد لطيف متسع، مشيد بالأحجار، مبني في وسط الماء، يتوصل إليه بجسر صغير لطيف، ولديه صفصاف يقال له صفصاف السرنكون، غصونه متدلية إلى الماء. وأمام هذا المقعد في الجانب القبلي مسجد صغير في وسط الماء، يتوصل إليه بجسر فيه محرابان لطيفان، لكن أحدهما متهدم، و[من] هذا المسجد ينبع الماء في أماكن متعددة، وعلى يمين هذا المقعد بالقرب منه في الجانب الغربي، جامع كبير عظيم، لكنه خراب وجدرانه مشيدة بالأحجار العظيمة، وفيه أعمدة ملقاة واقعة فيه، وفيه آثار المنبر وبه محراب عظيم، وله شبابيك كثيرة، وبه جدول لطيف جارّ من رأس العين... وبتنا تلك الليلة... ولما أشرق الصباح، وهو صباح يوم الأربعاء اليوم الـ (٣٨)، ذهب بنا حضرة نسيبنا المذكور إلى حمام لطيف الهواء، محكم البناء، متقن منير، معروف بالحمام الكبير، فدخلنا إليه، فرأيناهُ ليس له مثال ولا نظير، يشتمل مسلخه على قبة

(١) بن.

عظيمة مبنية على أربع من القيس (القسي) الكبار، يلتصق بالقبة أربعة من الأقبوة وأربعة من القيس الصغار، مبلطة بالبلاط المحكم اللطيف، وبه بركة ماء مثخنة محكمة البناء والترتيب. وبحذاء هذه البركة فسقية صغيرة ماؤها في اضطراب، مسامتة لوجه الأرض، يجري إليها الماء من النهر الجاري خارج الحمام أمام الباب، وتشتمل طبقته الوسطى على إيوانين، كل واحد منهما مقابل الآخر، وفي كل منهما خلوتان، وبإحدى الخلاوي مغطس لطيف، وفي وسط هذا الداخل صفة مستديرة مرتفعة عظيمة.

وفي بلدة بعلبك (حمام آخر) صغير، يسمى حمّام الخليل، وقد سمعنا أنه كان في هذه البلدة ثلاثة عشر حماماً، وموجود الآن بعض آثار منها، وليس فيها حمام عام غير هذين الحمامين اللذين ذكرناهما.

ثم إننا بعدما خرجنا من الحمام، وقد كان دعانا فخر الكرام حسين آغا حاكم البلدة المذكورة وتاج شيخ الإسلام، فذهبنا إلى مجلسه داخل السراية[1]، فتلقانا بالاحتشام، فأكرمنا بأنواع الإكرام، ثم جئنا إلى منزلنا ذي الأماكن الأبنية، فعملنا هذه الأبيات الرقيقة وهي:

سقى بعلبك الغيثُ والوابلُ الهطلُ   فكم للمنى وعدٌ بها ما لهُ مطلُ
أتينا إليها من جبال رفيعة   إذا انحط عنها النجم من جوّه تعلو
وأودية يغشى العيون وهادها   كأن سواد الغدر منها لها كحلُ
صعود ومن بعد الصعود النزولُ في   مهاوي صخور ما بها العلُّ والنهلُ
عقاب ولكن كلهنّ العقاب إذ   دها سالكيها في مسالكها الجهل

إلى أن أتينا أحمد[2] الاسم والزكا   سليل كرام كل أقواله فعل
ونسل بني أيوب بلبل دوحها   إذا حلَّ أرضاً ليس يُدرى بها محلُ
فكنّا لديه في أعزّ مكانةٍ   وفي رحم موصلة كلها وصلُ
أدام له الله الكريم زمانه   كريماً به لا يعتريه به بخلُ

(١) السرايا.

(٢) أحمد الأيوبي قاضي بعلبك (المؤلف).

مدى الدهر ماهبت يمانية وما زها الروض لما بلّ أثوابه الدبلُ

... ثم... ذهبنا نزور من هناك من الأولياء وأهل الصلاح، ونتزه الطرف في محاسن القلعة والسور، فسرنا فرأينا في ذيل الجبل الولي الصالح الشيخ عبد الله اليونيني مدفوناً وعليه قبة عظيمة لها شبابيك تطل على البلدة، فوقفنا أمامها وقرأنا الفاتحة... ثم سرنا حتى دخلنا في باب من أبواب السور يقال له (باب المدينة) فوجدنا مكتوباً عليه: «بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بعمارة هذا السور المبارك مولانا الملك العادل المجاهد نور الدين أبو القاسم محمد بن زنكي بن أقسنقر، ناصر أمير المؤمنين، ضاعف الله له الثواب، وغفر له ولوالديه يوم الحساب، ابتغاء مرضاة الله تعالى وتقرباً إليه في المحرم سنة تسع وستين وخمسمائة[1] والحمد لله». (أ.هـ).

واعلم أن أبواب السور سبعة (الأول) باب المدينة وقد ذكرناه (الثاني) باب القناعة (الثالث) باب همدان وهو لصيق بالقلعة (الرابع) باب حمص (الخامس) باب نخلة (السادس) باب السيد (السابع) باب دمشق. وثلاثة أبواب منها مسدودة: باب القناعة وباب السيد وباب همدان وهو أصغر الأبواب.

وقد رأينا من أعاجيب هذه القلعة، أنه في خارجها في الحائط الذي هو لصيق برج الأمجد ثلاثة أحجار كل حجر منها طوله نيّف وعشرون ذراعاً وعرضه نحو من خمسة أذرع، وتحت هذه الأحجار الثلاثة ستة أحجار دونها طولاً وعرضاً، وفوق هذه الأحجار قاعدة عمود ظاهرة خارجة عن الحائط مستديرة، كأنها حجر طاحون. وفي هذا الحائط على ظهر برج الأمجد، حجر طويل عظيم شديد البياض مكتوب عليه ثلاثة أسطر، والظاهر أنه تاريخ البرج المذكور، ولشدة علوه ونبت الحشيش عليه، لم يمكن أن نقرأهُ.

وفي هذه القلعة عدة من الأبراج قيل إنها تبلغ عشرين برجاً.

ثم جئنا وصلينا العصر في الجامع الكبير، فرأيناه جامعاً لمحاسنٍ تدهش الأبصار،

(١) الموافق ١١٧٣ م.

وتفوق سنى الأقمار، به مقصورة كبيرة لها بابان، وبها محراب كبير وبحذائه المنبر، وأمامها سدة يصعد إليها من خارج المقصورة بسلّم حجر عشر درجات. وفي هذا الجامع أيضاً قبة لطيفة بالحائط الشمالي فيها ماء لها ثلاثة أنابيب، وأمامها سدة كبيرة ويحيط بهذا الجامع رواقات، وهو مبني على أعمدة كثيرة عظيمة. كل عامود[1] فيه يحيط به رجلان، لكن طوله نحو خمسة أذرع. وفي داخل هذا الجامع بابان أحدهما عظيم يصعد إليه بدرج حجر رفيع عريض، وفناء هذا الجامع متسع جداً، وفيه أعمدة كثيرة، وفيه أيضاً بركة ماء مربعة، وفيه كأس عظيم بديع له شراريف كثيرة، وهو من العجائب.

وقد أخبرنا صديقنا روضة الآداب الشيخ عبد الرحمن البعلي[2] المتقدم ذكره أن هذا الكأس كان في القلعة، ولكن والده المرحوم نقله من القلعة إلى هذا الجامع. وفي فنائه أيضاً رواقات على أعمدة كثيرة، منها عامودان[3] (كذا) من السماقي، وبحذاء هذا الجامع مسجد لطيف على أعمدة، وقيس (قسي) من الحجر، لكن سقفه متهدم. وفي هذه البلدة جامع آخر يقال له جامع الخليل، وهو صغير، وله منبر لطيف.

ثم إننا خرجنا من الجامع، فزرنا الولي الصالح طاووساً، وقرأنا عنده الفاتحة، ودعونا الله تعالى، وهو مكان منير، قريب من الجامع الكبير، وفي خارجه جب عظيم، من حجر مضلّع، وبالقرب منه زاوية مدفون بها طائفة يقال إنها من نسل الشيخ علوان الحموي، فوقفنا عندهم وقرأنا الفاتحة، ثم سرنا حتى وصلنا إلى المنزل المعمور... وجرت بيننا وبين صديقنا الشيخ عبد الرحمن المذكور لطائف أدبية وعبارات حكمية... حتى أنشدنا هذين البيتين لأبي نواس[4] هما:

(١) الصواب: عمود.

(٢) الأرجح أن يكون هو نفسه الشيخ عبد الرحمن التاجي. إذ ينسبه هنا إلى مدينة بعلبك، مكتفياً بالمقطع الأول - البعلي دون الثاني بك - مع ياء النِسبة، وقد اعتمد المؤلف هذا المنحى قبلاً (المحقّق).

(٣) الصواب: عمودان.

(٤) بعد اطلاعي على ديوان أبي نواس، تبين أن هذين البيتين ليسا في الديوان وأنهما ليسا له، وإنما هما لمحمد بن كناسة (المحقّق).

في انقباض وحشمة فإذا   لاقيت أهل الوفا والكَرَمِ
أرسلتُ نفسي على سجيتها   وقلت ما قلت غير محتشمِ

ثم بتنا تلك الليلة حتى أسفر صباح يوم الخميس اليوم التاسع والثلاثون، فصلينا الصبح... وشددنا الرحال على المسير... وسرنا حتى وصلنا إلى قبة عظيمة على ثمان[1] أعمدة، جميع قبوها وقيسها من الحجارة العظيمة، وبها محراب عظيم، وهو قطعة واحدة منحوتة من الحجر. ورأينا بها قبراً قطعة حجر واحد، ولم نعلم المدفون فيه... وسرنا حتى وصلنا إلى قرية تمنين، فنزلنا هناك وأكلنا... وركبنا حتى جئنا إلى النبي أيلا عليه السلام... فنزلنا هناك وزرناه... وقد وجدنا في الحائط القبلي بخط ولدنا الروحاني الشيخ محمد الدكدكجي[2] هذه الأبيات من نظمه وهي:

أودعت في هذا المكان شهادة   تنجي لقائلها من النيران
أن لا إله سوى المهيمن ربنا   ربّ البرية خالق الإنسانِ
ورسوله خير الأنام محمد   خير الخلائق معدن الإحسانِ
صلى عليه الله ربي دائماً   والآل والأصحاب والأقرانِ

«حرره الفقير إلى الله تعالى محمد بن إبراهيم بن محمد الدكدكجي خادم فعال[3] الشاذلية في أوائل شهر رجب سنة ١٠٩٨»[4].

وهذا المزار هو مقام النبي أيلا (عم) مرتفع على رأس جبل متسع كثير الأنوار، يطل على وادٍ وسيع ومرأى باهر بديع، ومن أعجب ما رأينا في هذا المقام، أنه بالقرب منه على

(١) ثمانية.

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن محمد الدكدكجي (ت ١١٣١هـ/ ١٧١٩م)، فاضل، له نظم واشتغال بالأدب، مولده ووفاته بدمشق، له ديوان شعر، راجع: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر للمرادي ٤:٢٥ (المحقق).

(٣) الأرجح المقصود هو أنه فعّال بمعنى المثابرة على الصلاة والزهد وأنواع العبادات من خلال اعتماده الطريقة الشاذلية الصوفية (المحقق).

(٤) الموافق سنة ١٦٨٦م.

رأس الجبل عين ماء جارية وبأعلاها صفة كبيرة عظيمة مبلطة بالأحجار، بها فسقية ماء جارية أيضاً من البركة العالية لطيفة.

ثم إننا بعدما صلينا هناك صلاة العصر، سرنا ومررنا على قرية كبيرة عظيمة تسمى (الفرزن) حتى وصلنا إلى قرية (الكرك)، فخرج لملاقاتنا مفخر الأشراف السيد مرتضى، وأكرمنا بأنواع الإكرام، فجئنا فزرنا نبي الله نوحاً (عم) وقرأنا عنده الفاتحة... وهو مدفون بفناء جامع كبير منوّر مشرق بالمحاسن، وله منارة رفيعة عظيمة، وحول قبره نيّف وخمسون ذراعاً، وعليه تابوت مستطيل، وفوقه سقف عظيم. وفناء هذا الجامع مبلط جميعه بالبلاط، وأمام القبر في الجهة الشمالية بركة ماء مربعة كبيرة ماؤها دافق غزير وجدران فناء هذا الجامع جميعها مبنية بالأحجار العظيمة والقيس المتينة والشبابيك الكثيرة المطلة على ذلك الوادي المتسع، وعدد شبابيكه التي في الجهة القبلية أحد عشر شباكاً وفيه المحراب. وفي جهة الشرق ثلاثة شبابيك، وفيه باب يصعد إليه بخمس عشرة درجة. ولصيق هذا الباب قبة عظيمة بها فسقية ماء جارية غزيرة مبلط حولها بالرخام الملون، وأربع جهاتها مطلقة مطلة على الوادي، فجلسنا في هذه القبة في أتم سرور ونشاط... حتى حان وقت العشاء، فدخلنا إلى حرم المسجد وصلينا، ثم بعد الصلاة دخلنا إلى خلوة هناك، فبتنا فيها حتى طلع الصباح... وهو صباح اليوم الأربعين من سفرنا... وهو نهار الجمعة غرة جمادي الأول سنة ١١١٢ سنة اثنتي عشر ومائة وألف[1]... فأكلنا، وقلنا عدد ذلك من النظام:

لقبر (نوح) نبيّ الله في الكَرَكِ   نفح عطير كنفح الورد في الكَرَكِ
فيا له من مقام قد علا شرفاً   يخط من دونه العالي من الفَلَكِ
وثمّ فسقية بالماء دافقة   عذباً زلالاً لذيذ الطعم في الحَنَكِ
وفوقها قبة زادت ملاحتها   يقول ناظره للّه ثم لكِ
وبسط ذا الجامع المعمور مفردة   جمالها بالمزايا غير مشتركِ
طلّت شبابيكها من وجه قبلتها   على الفضا عالياتٍ جمّة الحُبُكِ

(١) الموافق سنة ١٧٠٠ م.

وللنسائم بالتقطير ألوية   منشورة بين تلك السوح والشككِ
هنالك العيش غض بالأحبة مع   فرط الهنا والصفا والحفظ والدركِ
يا حسن ليلة أنس قد نعمتُ بها   في ظل ذاك المقام المشرف الملكي
ونور نوح نبي الله يشملنا   بسرّ سرّ عظيم غير منتهكِ
في جمعة جمعت أنوار بهجتها   كُلّ السرور أنجتنا من الهَلَكِ
حتى انقضى الوقت والأذن الشريف أتى   بالسير نحو الحمى في إثر محتركِ

ثم إننا ذهبنا فزرنا رجلاً هناك في القرية المذكورة يسمى السيد عبد الكريم، وهو رجل صالح لكنه زَمِنَ، لم نَرَ منه غير وجهه ولحيته وعمامته وهو ملتصق بالأرض، قيل إن رجليه صغار جداً، كل واحدة مقدار أصبع من أصابع يد الإنسان، ويداهُ وساقاهُ كذلك، وقيل إنه إذا صلّى يصلي بالإيماء... وخرجنا فرأينا قبوراً لصيقة بالجامع المذكور ترى من شبابيكه... ووجدنا هناك قبراً عالياً مكتوب عليه هذا التاريخ:

إن والي بيك هذا   يعلم فارقْ أخويهِ
صار جاراً لنبي   وهو منسوب إليهِ
مصطفى باشا وزيراً   كان إحدى راحتيهِ
قلت تاريخاً مُسرّاً   رحمة الله عليهِ

ثم جئنا إلى الجامع المذكور، فأنشدنا سليل السادة الأشراف السيد مرتضى هذه الأبيات لبعضهم في هذا المكان المعمور وهي:

يا حسن طارمة في الجو شاهقة   ما أن تحل بها العينان من نَظَرِ
نزّه لحاظك في طاقاتها لترى   أصناف ما خلق الرحمن للبشرِ
ترى محاسن وادٍ يحتوي نُزَحاً   للذات والسمع والأبصار والفكرِ
ما بين روضٍ وأنهار مسلسلة   تجري وتحمل أنواعاً من الثمرِ

وقد أطلعنا السيد المذكور على كتب منها (مجموع فيه قطعة من روض الأزهار وحديقة الأشعار) تصنيف العلامة صلاح الدين الكتبي (في الأصل الكنني) قال في أوله:

قد جمعت في هذه الأوراق من الغزل ما أثبته فيها ورتبته على حروف المعجم بعدما افتتحت كل حرف بقصيدة من نظم الشيخ الإمام الزاهد يحيى الصرصري[1] في مدح الرسول (ص) حسبما اقترحه عليّ من لا يُردّ أمره ولا يجهل قدره. قال في حرف الجيم للصاحب بن مطروح:

مصارع الأسد بين الغنج والدَّعجِ   وحلية حسن بين العاج والسَّبَجِ
والدرُّ ما كان في المرجان منبته   دع البحار وما يسكبن في اللججِ
أهوى الغصون إذا مرّ النسيم بها   ترنّحت بين ما أمتٍ ولا عوجِ

ثم إننا صلينا الجمعة على مذهب الإمام الشافعي، في هذا الجامع الكبير الذي هو جامع (قرية الكرك)... وسرنا فرأينا في أثناء المسير نهراً عظيماً يسمى نهر اللاطاني وعليه جسر عظيم...[2] حتى وصلنا إلى قرية تسمى برّ الياس، فنزلنا هناك وصلينا صلاة العصر، وبتنا في دار وسيعة وأماكن رفيعة، حتى انتصف الليل فنمنا... وشددنا الرحال وركبنا الخيل، وسرنا حتى قطعنا وادي المجدل وحمدنا الله فنزلنا وصلينا صلاة الفجر وسرنا... حتى لاح صباح يوم السبت الحادي والأربعين من سفرنا... ولاح قرن الشمس في وادي قرنانا[3]... ولم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى وادي بَرَدى... فنزلنا على حافة نهره العظيم وأكلنا... ثم صلينا الظهر... وقمنا فذهبنا ومررنا على الجسر[4] الدمراني، فرأيناهُ جسراً عظيماً متسعاً... حتى صعدنا على جبل كثير الدرج، مطل على الربوة نزهة الأرواح والمهج يتصل بسفح قاسيون... ومررنا على قبة السيّار... ونزلنا في ذيل ذلك الجبل، وأشرفنا على دمشق الشام، ولاحت لنا قبة الجامع الأموي، كأنها العروس تجلى وتزهو بفرط حُسن واحتشام، حتى وصلنا إلى مزار الشيخ أبي بكر بن قوام... فزرناه... ثم صلينا هناك صلاة العصر... وخرجنا،

---

(١) هو يحيى بن يوسف الصرصري، ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. شاعر من أهل صرصر (على مقربة من بغداد)، سكن بغداد وكان ضريراً. البداية والنهاية لابن كثير ٣:٢١١، ذيل مرآة الزمان لليونيني: ٢٥٧ – ٢٦٣ (المحقّق).

(٢) يقصد به نهر الليطاني، والجسر الذي يتحدث عنه هو جسر دير زنون (المحقق).

(٣) وادي القرن (المؤلف).

(٤) جسر.

فقرأنا الفاتحة للشيخ الزعبي ولمن دفن في حِماه، وقرأنا الفاتحة أيضاً لحضرة قطب العارفين الشيخ الأكبر[1]... ثم سرنا، فمررنا على قبر الشهداء، فقرأنا لهم الفاتحة، ومررنا على الشيخ مجاهد وقرأنا له الفاتحة، حتى وصلنا إلى منزلنا بالقرب من الجامع الأموي، فحمدنا الله على ما أنعم من الزيارة، وأتم أنعامه بالعود إلى الوطن الأصلي بالسلامة... (أ. هـ).

---

(١) المقصود بالشيخ الأكبر هو الإمام محيي الدين بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م والمدفون في سفح جبل قاسيون. والشيخ الأكبر مصطلح صوفي لا يتمتع به سوى آحاد من كبار رجال التصوف، وقد لقبه أتباعه أيضاً «سلطان العارفين» و«إمام المحققين»، ولد في مرسية بالأندلس سنة ٥٥٨ أو ٥٦٠ هـ على الأرجح/ ١١٦٤ م، وانتقل إلى إشبيلية، وقام برحلة، فزار الشام والعراق والحجاز. استقر في دمشق وتوفي فيها، وله مؤلفات عديدة كتفسيره للقرآن وفصوص الحكم وترجمان الأشواق وشجرة الكون والأعلام بإشارات أهل الإلهام وغيرها. أما كتابه الفتوح المكية فهو من النصوص الصوفية الرئيسية، وقد طُبعت كتبه مرّات عديدة، كما وُضعت الكثير من المؤلفات عنه، وعن اللغة والرموز التي يستعملها في كتاباته. راجع: سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط.١، ١٩٨١، وغيرها (المحقّق).

